[redacted]

محمّد جبعيتي

عالم ٩

دار الآداب

محمّد جبعيتي

عالم 9

روايه

دار الآداب ـ بيروت

عالم 9

محمَّد جبعيتي / روائي فلسطيني

الطبعة الأولى عام 2021
ISBN 978-9953-89-719-6

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيِّ جزء منه، أو تخزينِه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيّ شكل من الأشكال، من دون إذن خطّيٍّ مسبَّق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Daraladab @Daraladab daraladab.com

يقولون إنَّ الزمن يشفي كلّ شيء،

ويقولون إنَّك تستطيع أن تنسى دائمًا؛

لكنَّ الابتسامات والدموع، على مرِّ السنين

لا تزال تُمزِّق أوتارَ قلبي!

جورج أورويل، 1984

أحمر

مدينة yes، نهر باخوس

3 تموز، XXAX

13:30 ظهرًا

رغبت بالتخلُّص من عقلي، سيِّد الأسئلة والتداعيات. الشمس ساديَّة جلدت بشرتي السمراء باشتعالاتها، وحبَّات العرق البارد رشحت من جبيني. تمدَّدت عاريةً على الرمل الساخن أوقظ رغباتٍ خفيَّة. السماء خالية إلَّا من الشمس. داخلي أحمر بلون الجحيم. وصلت النهر نشيطةً، بطاقةٍ لركض مسافاتٍ طويلة، مع مضيِّ الدقائق، وربَّما الساعات، بدأت طاقتي بالتبخُّر. تسيطر عليَّ فكرة أنِّي نكرة. تتقلَّص عضلاتي ويجفّ جسدي، أدخل في دوَّامة صمتٍ صقيل. أسقط في فراغٍ هائل

داخل ذاتي. كدأبي خسرت المعركة. ربَّما أنا مجنونة أو الحمَّى أفقدتني القدرة على التركيز. لا بأس، عوقبت بأوهامٍ في الرأس، نعم، رؤى مُظلمة ومُفزعة لا تخطر ببال أحد. أيَّام طويلة أمضيتها في عزلة، أصرخ برعب.

اسمي 9، أمقته، شيءٌ قبيح للغاية، يا له من اسم! أعتقد أنِّي في التاسعة والعشرين، أكثر ربَّما بعامٍ أو عامَيْن، لا أدري! توقَّفت عن الانتباه لعمري منذ الحادثة، إذ نزل بي الحزن ولم يغادرني. أعيش، كما أخمِّن، في مدينةِ «yes»، عروس بلاد الشمال، حيث البرد والعزلة. من أنا؟ هذا السؤال الذي لا أضجر منه. هل بنت أمِّي؟ أم بنت عدوِّها؟ لا شيء. أَقُلْتُ شيئًا! أهذي. أُغنِّي أغنياتٍ شعبيَّة. **ابقَ حيث الغناء، فالأشرار لا يغنُّون**، يقول المثل الغجريّ. أحاول أن أصلِّي، لا أتذكَّر شيئًا. أحاول عبثًا استفزاز الذاكرة التي شوَّشها الكوكايين، لا أذكر آخر مرَّةٍ صلَّيت فيها، والكوابيس أحرقت رأسي. تغزوني الأوجاع. ليلة البارحة كانت طويلة، رقصت كأنِّي لم أرقص في حياتي، أدَّيْت عدَّة رقصاتٍ قديمة، والآن أدفع ضريبة السهر. تمايلت بشهوةٍ مجنونة، قفزت إلى الأمام، إلى الوراء، بانتشاءٍ كبير. أثنيت جذعي جاعلةً رأسي نحو الأسفل، ثم حرَّرته رافعةً ذراعيّ في الهواء، كأنِّي على أهبَّة الطيران. أرواحٌ تطير وتحوم في الفضاء. هل حلَّقت؟ مررت عبر البيوت والحقول والبحار والحدود، إلى أن وصلتُ، لكنْ أين؟

جافٌّ فمي، وشفتاي متيبِّستان، رأيتُ أكوام جثثٍ في

أكياسٍ بلاستيكيَّة، أطفالًا محروقين، لحمًا معجونًا بالغبار، أجسادًا مخلوعة الأظافر، مهملةً على الطرقات يعلوها الذباب، أنهار دم وقَيْح، مستنقعات طين قذر، نساءُ لحظة الاغتصاب.. وسمعتُ عويلًا، بكاءً عنيفًا لأطفالٍ ونساء ممتزجًا بصوت البحر. الماضي صرخةٌ تُمزِّق حنجرتي وتُلهب دمي. غرقت في ظلمةٍ دامسة، ملعونةٌ الحرب، أسقط فيها كلَّما حاولت انتشال نفسي. كثيرًا ما أُفكِّر فيها، عجلة الموت والدمار. أُبعد عنِّي الموت، فيُلاحقني. كلّ الأيَّام الماضية هدوء ما قبل العاصفة، أشعر بذلك في لحمي. سأعيش، لكنِّي سأُعاني، أنتظر النهاية ولا تأتي، هذا ما كُتب لي.

في ذلك الزمن، كنت فريسةً لقوى غريبة، قادرةٍ على إغوائي والتحكُّم بي، أكبر من مقاومتي، فانهزمتُ أمامها. كنت جبانة. أعترف. لم أعرف كيف أُدافع عن نفسي. هنا تكمن الغرابة! على الرَّغم من الخوف وجدتني هناك. كنتُ امرأةً هشَّة، لحظة جنونٍ في حياتي، حوَّلتني إلى كتلةٍ محطَّمة.

حدثَ شيءٌ مُرعب، لا يمكن روايته. مجرَّد التفكير فيه، يجعل حلقي جافًّا، وجسدي جثَّةً باردة. لا الكلام قادرٌ ولا الخيال على التعبير عن تلك اللحظات المأساويَّة، حين وجدتني مهملةً في قاع الخزانة. شعرتُ برغبةٍ كبيرة في إيذاء شخصٍ ما. أن أُخرِج كلَّ ما بداخلي من كراهية، أنْ أُطلقها مثل ذئابٍ جائعة. رغبةٌ في التحطيم، وفي التكسير، وفي تدمير أيِّ شيء. هذا الغضب الذي حاولت دفنه تدفَّق من تحت الرماد، وتلك

الصور التي حاولت نسيانها نبتت في رأسي. ربَّما استعذبتُ الأمر، ورغبتُ بالاكتشاف، وبعد أنْ أُصبت بالإحباط، أعلنت تمرُّدي. متواطئة! لكنَّه، كان تمزُّقًا في كلِّ لحظة. دمعةٌ وراء دمعة. موجة ألمٍ وراء موجة. سقطةٌ في الفراغ وراء سقطة. طرْقاتٍ في الرأس. طعناتٍ في القلب. تمزُّقات. صرخات. من ظلمةٍ لظلمةٍ أخرى. حياتي شظايا تتطاير حولي. أمضيتها خائفة. الخوف سيِّئ. هل أنا سيِّئة؟ عالمٌ يدفعني للجنون. متعبة. سئمت من كلِّ شيء. الوحدة قاسية. قاسية جدًّا. كي أخرج، لا بدَّ من أن يكون ثمَّة مكانٌ أخرج إليه، لا صديقة لي ولا أهل. الأماكن محدودة. العجوز بائع المتجر، لطيف، أحبُّه حين يقول يا فتاة. ونادلة المقهى. أحيانًا أتحدَّث مع مجهولٍ في الهاتف. مرحبًا، الرقم خاطئ. شكرًا. الذكور يحاولون المغازلة. أُغلق السمَّاعة.

نسيت الوقت وأنا أُحدِّق في اللاشيء. هل مرَّت ساعةٌ أم ساعتان؟ ما أعرفه، أنِّي كنت منجذبةً إلى التفكير في الماضي الذي أصبح ضبابيًّا، وعليَّ استرجاعه بكلِّ ما أملك من قوَّة ذاكرةٍ واهية. كلّ شيءٍ صار قاتمًا. لم أَعُدْ أَسْمع شيئًا. لم أردَّ على اتِّصال. كأنِّي في حلم، أخذتْ حواسِّي بالتحفُّز، وأعصابي بالتوقُّد.

استعدت وعيي. فتحت عينيَّ الحمراويْن. رأيت سماءً شديدة الزرقة. نسيت نفسي وسط دوَّامات الغَثَيان، شعرت بِخَدَرٍ لذيذٍ في جسدي. حرَّكت أطرافي ببطء. مددت ذراعي بعد أن

نفضتها ليتدفَّق فيها الدم. خطوط عرقٍ تسيل على ظهري. رفعت رأسي الثقيل، وأمعنت النظر إلى مياه النهر. آآآه. ألم ينبض في جبهتي. أغلقت عينيَّ قبل أن أفتحمها من جديد. حدَّقت في نقطةٍ واحدة. نهرٌ فتيٌّ أفرغت ذهني في جريانه. رمالٌ ومياهٌ صافية. عندئذٍ تسارع كلّ شيء. هبَّت الريح فثارت أمواج النهر، واستشعرتُ بقلبي ما يستعصي شرحه. التفتُّ بذهولٍ إلى الوراء فرأيتها. كانت تجلس على السور، قدماها متدلِّيتان، تنظر بعيدًا.

غموضٌ سرِّيٌّ، أطلَّ رويدًا رويدًا، اهتزَّ له كياني. تشظَّيْت. لحظة سحريَّة تستعصي على التكرار، حفَّزت قلبي المفعم بالأهواء. ومشيتُ نحوها بهدوء. أدبُّ على الرمل مثل نملة، تمرُّ بحذر بين صفَّي حمَامات. تحرَّكت برشاقة مستسلمةً لغوايتها. صعدت تلَّة، ثم مشيت على ممرٍّ حجريٍّ. اقتربت، بدت الفتاة في عالمٍ آخر طيفيّ. جلستُ بجانبها. خمس دقائق. عشر. نصف ساعة. انتظرتُ أنْ تلتفتَ، أن تتحرَّك، أن تسعل... لا شيء. راقبتها بهدوء. تأمَّلت وجهها الطفوليّ، وبشرتها السمراء، وكتفيْها المكتظَّيْن بالنمش. تنفَّستُ رائحة شعرها العابقة بالألوان. انتبهتُ إلى وشم في ساقها اليمنى. فركتُ عينيَّ، وحدَّقتُ من جديد. برزت الأرقام 9 6 3 بحبرها الداكن قبل أن تنكمش لتبدو نَدَباتٍ باهتة.

كانت أشبه بتمثال، وجهها يتوجَّه صوب دفتر ترسم فيه عيونًا بأحجام مختلفة. الورقة الواحدة شبكةٌ من العيون. بدت حزينةً مثل طائرٍ في قفص. وعندما تصفَّحتُ الدفتر، رأيت عيونًا

أخرى. لم أفهم سبب ولعها. **لماذا لا ترسم سوى العيون؟** تبدو طلاسم. رفعتْ عينيْها عن الدفتر، ونظرتْ إليَّ نظرةً هادئة باردة. لم أرَ مثل عينيْها، معذَّبتيْن، كان فيهما ما كنت أتوق إليه.

أحيانًا، يستحيل علينا الكلام. هذه قصَّةٌ لا تُقال وإنَّما تُعاش. إنَّها قصَّتي. ليست بأحداثٍ عظيمة، بل عاديَّة، وربَّما تافهة، غير أنِّي أُبجِّلها، تلك اللحظات في حضن العبث والجنون والفوضى... **في حياة كلّ إنسانٍ نقطة انعطاف حيث لا تعود الأشياء نفسها**. هذا اللقاء كان شيطانيًّا. ها أنا أتعرَّى، أنكشف، أقول كلّ شيء. الأشياء غير الأشياء. انتشاءٌ ودوخةٌ لذيذة. لم أجرِّب شعورًا محفِّزًا، ولا وجدتني في موقف مُشابه، رأيت نفسي مأخوذةً بقوَّةٍ غامضة، مُصابةً بتعويذة ساحر. رحتُ أغوص عميقًا في اللاوعي. كان جسد 6 هزيلًا، وعظامها بارزة. بدت أكبر من عمرها الحقيقيّ. عاديَّة على نقيضي. تُشبه نصفي الآخر، ما ليس لديَّ، غير أنَّها جذبتني. لزمتُ الصمت طويلًا. العزلة ووقفات التأمُّل حفَّزت حواسِّي. كنت هناك، أجلس على الحافَّة بلا حراك. شهورٌ من الوحدة، لم أكلِّم فيها إنسانًا. عزلةٌ قاسية حياتي. كنت مريضة بما لست أدري، حزينةً لأسبابٍ أجهلها.

بعد وقت، لا أدري إنْ طال أم قَصُر، التفتت إليَّ دون أدنى فضول. طفقَتْ أصابعي بالارتجاف وشعرتُ بالاختناق. «مرحبًا» قلت لها. عرَّفتُ لها عن نفسي. قلتُ كلامًا غريبًا، لم

أَقُلْه في الماضي. أنا 9 نباتيَّة، اللحوم مؤذيةٌ لروح الإنسان، أُحبُّ قراءة الشعر، وروايات الخيال العلميّ. أدخِّن بشراهة. أفرقع كثيرًا أصابعي. عملت موديلًا. وأنت ما اسمك؟

ـ 6، لا أحبُّه، إنَّه اسمٌ سخيف، أليس كذلك؟ أعرف، سأبحث قريبًا عن اسمٍ جديد.

ـ لماذا؟

ـ الحكايات مليئةٌ بالأسماء، لا أدري لِمَ يُصرُّون على تسميتنا بالأرقام. أليست كريهة؟ تبًّا لهم، إنَّه عالم موت المنطق، جنون! أليس كذلك؟ يا إلٰهي، لا أحد يستطيع فهمنا. أين عملت موديلًا؟

ـ في استديوهات رسَّامين مبتدئين، معتوهيْن تعساء، يهذون طوال الوقت، يظنُّون أنَّهم عظماء.

ـ عملك!

ـ لنقل أكثر من ذلك، أشعر بالامتلاء حين أرى جسدي حرًّا. في بعض الأحيان، يعرضني الفنَّانون كتمثالٍ حيٍّ في الغاليريهات وقاعات المتاحف.

ـ يا إلٰهي، يحوِّلونك إلى تابوه للرسم!

ـ أو سيرك للمشوَّهين.

ـ إنَّه حلم تحويل البشر إلى حجارة.

ـ أو حيوان.

ـ ما عاد أحد يبيع روحه للشيطان.

ـ منذ متى ترسمين؟

ـ منذ بدأت أُفكِّر، الرسم طريقة تفكيري في الأشياء. وثمَّة شيءٌ آخر، عميق، عميقٌ جدًّا، إنَّ الرسم يُنقذني دائمًا من الغرق. كلَّما شعرت أنَّ العالم يجذبني إلى أعماقه تنتشلني الألوان للأعلى، فأطفو.

ـ أترسمين فقط العيون؟

ـ يا للسخرية! أعتقد أنَّني متابعةٌ جيِّدة لِما يدور في العالم.

ـ لم أفهمكِ.

ـ العالم بالغ الخطورة. في الماضي، كانت العيون تراقبنا من الخارج، أمَّا الآن باتت قادرةً على رؤية أعماقنا. **العيون في كلِّ مكان**. أمرٌ فظيع، أليس كذلك؟

ـ لا شيء أفظع من رؤيةِ داخلِ الإنسان، ومعرفة ما يدور في رأسه. مَنْ لديه هذه القدرة؟

ـ الأشخاص الذين يتحكَّمون بالبقيَّة. متوحِّشون، يمتلك الواحد منهم عيونًا كثيرة، وثلاث معدات، وسبع أرواح. أمَّا الفئات البشريَّة التي يمكن الاستغناء عنها، فلا تملك شيئًا، إنَّها تحتضر.

لم أفهم كيف بوسع فتاةٍ صغيرة أن تكون بهذا الوعي، «**الناس الذين في الأعلى**» لا أعرف أحدًا منهم. كانوا دائمًا في

مكانٍ قصيٍّ ولامرئيٍّ، إلَّا أنَّهم يتحكَّمون بي.

ـ جسدك جميل.

قالت فجأة.

شعرت برجفةٍ عميقة. لم أفهم ملاحظتها. أكانت مجرَّد جملةٍ عفويَّة؟ أمْ تلميحٌ حول هويَّتها الجنسيَّة؟ أتقول عرَّيْتك، لكنْ بلغةٍ مباغتة؟ لا أدري إنْ كان بدافع الدهشة أم الشفقة. ضوءٌ يلمع في عينيْن مرتبكتيْن لطيفتيْن. يا للطفلة العابثة. تعرف 6 كيف تلامس أوتار أنثى عانت من الانتظار، كلُّ ما بها يشي بحرائق مستترة. كنت جاهزةً للتخلِّي عن كلِّ شيء، في سبيل لحظة دهشة.. حبٌّ عابر. شعرتُ بجسدي سينفجر، ليقفز العظم ويتطاير اللحم في الأرجاء، سيتدفَّق الدم، طالما تخيَّلته أزرق اللون، كثيفًا كالبحر، سيُغْرِقُ المكان. كان عليَّ أنْ أهدأ. تماسكت. ولأخلع عنِّي معطف الخجل، ثرثرتُ دون توقُّف: *يرسمونني عاريةً أثناء الصيف في الهواء الطلق. جسدي يُثير أحيانًا جنونهم، فيبدأون التخطيطات أوَّل النهار، وينهونها آخره.* كان كلامي عصبيًّا ومتوتِّرًا، لذا أوقفتُ سيل الكلمات المنهمر، ورحَّلت الحديث إليها: *أعجبني رسمك، تنظرين باختلافٍ إلى الأشياء. «ربَّما»* كلّ ما قالته. حينها تسلَّقت عيناي بحذرٍ قدميْها الناعمتيْن. غريبة أطوار! لا يهمُّني. أتصرَّف بحماقة، تجذبني القدم لأسبابٍ غامضة. أجدني مدفوعةً نحوها بإحساسٍ يغمرني. حاولت مقاومة جاذبيَّة القدميْن، فأدرت وجهي، غير أنِّي نظرت إليهما من جديد. ذاكرتي باهتة، كأنِّي في مصعد، أُلاحق صورًا

ضبابيَّة، من الأسفل للأعلى، من الأعلى للأسفل. لحمي ودمي. ما قيمة حياة المرأة بلا حبّ؟ طَبَقٌ بائتٌ سيِّئ المذاق. هكذا كانت حياتي. لا أكذب، أقول الحقيقة.

تصاعد توتُّري. مُصابةٌ بالجنون. ملوَّثةٌ بالعالم. تعرَّق جسدي. واصلتُ تفحُّص قدميْها. دمي يسخن متدفِّقًا في الشرايين. أشعر بألف شيء، ويضغط عليَّ العالم بثقله. السماء زرقاء، النهر يجري بهستيريَّة، الهواء يصهل. رأيت قدميْن فريدتيْن، لم أرَ مثلهما في حياتي. أقسم بذلك! قدمان متوتِّرتان، متحفِّزتان، مندفعتان. جميلتان على نحوٍ استثنائيٍّ. في نهايتهما أصابع طويلة مرسومة بدقَّة، بأظفار رقيقةٍ مطليَّة. قدمان شاردتان سحرتاني. ليس سحرهما فقط، إنَّما عريِّهما الفاحش الذي لا يُقارن بأيِّ عريٍّ آخر. لا بدَّ للغيمة السوداء الثقيلة أنْ تتلاشى من عالمي، هذا ما خطر ببالي وأنا جالسة تحت الشمس أُحدِّق وأُحدِّق، تمضي الدقائق، الزمن يبدو مسطَّحًا.

ـ مريضة؟

كان صوتها دافئًا، عميقًا، واثقًا.

تخيَّلت، لا أدري كيف! برغبةٍ حارقة: أصابعي تتلمَّس ببطءٍ قدميْها. لم تسحبهما. نظرتْ إليَّ بعينيْن مشتعلتيْن نصف مفتوحتيْن. توقَّد جسدي وأنا أقترب منها. شعرتُ بارتخاء مفاصلي. لا أستطيع أن أصف ما حدث. كلّه في خيالي، غير أنَّه بدا حقيقيًّا. واندفعت صورةٌ وليدة الرغبة، توقٌ عتيق، هل «كذبٌ» هذا؟ أتخيَّل أنَّني أتخيَّل. لم أبلغ هذه الحسِّيَّة في

حياتي، ولا عشت تجربةً تضاهيها. صدمةٌ. حدثٌ غير مفهوم. في لحظةٍ ما، استيقظت من غفوتي. هل جرَّبت فعل ذلك؟ سألتني. لا أدري. كيف رأتْ ما رأيت. كيف قرأت خيالي؟ اللعنة على السؤال، حيلةٌ لغويَّة مفخَّخة بالمفاجأة. حين لاحظتْ ارتباكي، انفجرت بالضحك. بعدها بقينا صامتتيْن، نُحدِّق إلى بعضنا بعضًا. توقَّف عقلي عن العمل. طنينٌ دوَّى في رأسي. طَفَتْ ظلالٌ كثيفةٌ في عينيَّ. شعرت بالخطر. ترنَّحتُ مرتبكة. كانت تجربةً مذهلة، لكنَّها مخيفة. نهرٌ داكنٌ ينزف مياهًا معتمة. غيمةٌ حجبت نور الشمس، فسقطت بسرعة في الظلِّ.

أين أنا الآن؟ أشعر بالعيون تترصَّدني. وحدي، خائفة، ولا أريد المغادرة. هل أناقض نفسي؟ أقول لا، وأريد نعم. حاصرتني الأفكار، وتبعثرت في فوضى ذهنيَّة. افترقنا دون أن نقول كلمة واحدة. مشيت منهكةً. كان اللقاء الموعود. جمالها أوجعني، نظرتها، ضحكتها، صوتها، مشيتها... نظرت إليها تغادر بهدوء. شعرت أنِّي دخلت لعبةً خطرة، انجذابًا لذيذًا، إلَّا أنِّي وقعت فريسة صيَّادٍ محترف، بحيْرةٍ وتوتُّرٍ كامليْن، ابتعدت في شوارع المدينة، أتصبَّب عرقًا مالحًا، تائهة أبحث عن شيء ينقصني. لا أحد سيفهمني! المشاعر تغدو سخيفةً لحظة البوح. مشيت كأنَّني في حلم، لا أسمع إلَّا هدير دمي. لا أتعرَّف إليَّ. مجهولة الاسم والوجه. أبحث عنِّي ربَّما، أو عن حقيقتي. محاصرةٌ بعلامات الاستفهام. هويَّتي الممزَّقة تنبح في وجه القدر، تطردها أرصفة المدينة، تتوحَّش، ترتدُّ إليَّ، وتُمزِّقني.

ارتكبت أخطاءً كثيرة، أفهم ذلك. أنا إنسانةٌ في نهاية الأمر، أُخطئ وأُصيب. لست ملاكًا، لكنَّ الذنب ليس ذنبي، ليكن واضحًا. ربَّما الذنب الوحيد أنِّي امرأة، وهذا ما جعل حياتي بلا قيمة. من الصعب في هذا العالم أن تكون امرأةً. لا ألعب دور الضحيَّة. فقط أقول ما أرغب بقوله. صمتُّ طويلًا. يكفي. لن أتوقَّف قبل الانتهاء من حكايتي. صحيح، أنا مغرورة، لست جميلةً فقط، وإنَّما فاتنة وفتيَّة. بشرتي سمراء ناعمة بلا بثور. لا أضع مساحيق التجميل. جمالي نقيٌّ، لاذعٌ ومؤذٍ. جسدي متوتِّر، مستيقظٌ لأدنى لمسة. قوامي رشيق، وأصابعي طويلة. شعري مسترسل، لونه أسود، وله عبيرٌ منعش. أسكن في حيٍّ فقيرٍ بالعاصمة، غرفتي عالم أحلامي. أحلم أحيانًا أنْ أصبح رسَّامة، راقصة تانغو، مقاتلة، أحلم بكلِّ شيء، غير أنَّني لست أيًّا منها. أتمشَّى عصرًا في الحديقة القريبة، ومساءً أذهب إلى مقهى. الأحد يومٌ للراحة والتأمُّل، مثل الربّ بعد خلقه الكون، أرتاح، أنظِّف غرفتي، أطبخ السباغيتي، أخرج لأجلس على مقعدٍ أدخِّن السجائر. هذه حياتي: رتيبة وهادئة.

مات أبي، أقصد زوج أمِّي، منتحرًا بعد أنْ رمى نفسه من النافذة. يقولون إنَّه سقط، وأقول انتحر. ربَّما رغب في التحليق. طالما حلم بالطيران. آه، اللعنة عليّ. كان هذا البائس موهوبًا بشكلٍ استثنائيٍّ، هكذا يقول الآخرون. حسنًا، حسنًا. لا أقول الحماقات. لا لا. ليكن هذا واضحًا. التحليق في سماء الشهرة كان حلمه. ربَّما مات بسبب ما فعله بي. نعم، مات من

الشعور بالذنب. أمّي كانت امتدادًا له، ظلّه، ماتت شابَّةً بمرض في القلب. لم تكن قويَّةً بما يكفي لتحتمل. متى؟ كم كان عمري؟ ربَّما ماتت بعد عشر سنوات من ولادتي. أكثر بقليل. سنة أو سنتيْن أو ثلاثة. هل أعرف «ماما» جيِّدًا؟ لا أعتقد. كلّ شيءٍ يتعلَّق بالزمن. متخمةٌ بالحماقات. لا أعرف كثيرًا عن حياته. قال لي إنَّه كان عازف بيانو. بعد هربه من الحرب الأهليَّة، لم يعد للعزف مرَّةً أخرى. أتذكَّر وجهه، أتذكَّر صوته، أتذكَّر شكله يوم تحوَّل إلى شخصٍ آخر. بعدها، لم أجرؤ على نطق اسمه. أسترجعه فقط داخل رأسي. عبثًا حاولت نسيان ما حدث. كيف لي أن أتفهَّم ذلك الوضع الغريب؟ صرخت، ولم يسمعني أحد.

رأيت كيف تحوَّلت ملامحه. يبدو أنَّ الملامح الحقيقيَّة تظهر لحظة العريِّ وتفجّر الشهوة. شهدت كيف جعلني أنا الضحيَّة أشعر بالذنب، لأرجوه أن يسامحني. قال لي: «كوني عاقلة! لا تقولي شيئًا»، «أنتِ تتوهَّمين الأشياء»، «لن يصدِّقك أحد»، وكان البكاء جوابي. قَلَبَ الأدوار، لامني وحمَّلني المسؤوليَّة. بكيت. قلت له لا تُخبر أحدًا. هدَّدني. لم أعارضه. كنتُ مرعوبة. شيءٌ فظيع. عانيتُ فترةً طويلة من عقدة الذنب، وحاولت طمس الذكريات، إلَّا أنَّها ظلَّت تتأجَّج داخلي. أمرٌ لم أتخطَّاه على الرَّغم من محاولاتي. صرت أتجنَّبه في البيت. حين نلتقي أبتعد عنه. على مائدة الطعام، أظلُّ صامتةً أرتجف من الخوف. حين أدخل غرفتي، أغلق الباب بالمفتاح. البيت صار مكانًا مرعبًا لا يناسب فكرة الأمان. لا

نتحدَّث إلَّا نادرًا، متواطئيْن على الصمت وإخفاء الحقيقة. نظراتنا تتبادل الكلام بلغةٍ أخرى، لثوانٍ فقط، قبل أن أُدير وجهي.

بعد موته، أنزلت صورته المعلَّقة على حائط الغرفة، ورميتها في حاوية النفايات، ثم غادرت الشقَّة. حاولت البحث عن خلاصٍ وبدايةٍ جديدة، غير أنَّ وجهه ظلَّ يُلاحقني، في كلِّ مكان. كلماته ظلَّت محفورةً في ذاكرتي، «عاهرة صغيرة مثل أمّك». كم مرَّة اقتحم كوابيسي! فضَّلت الأرق على رؤية وجهه، ولمَّا يهزمني النوم فأراه، أشعر أنّني أتقطَّع من الرعب. تساءلت كثيرًا: ما الذي أراده منِّي؟ ماذا شعر، في تلك اللحظات، حين كشَّر عن أنيابه؟ سنواتٌ طويلة مرَّت أبحث عن إجابات. عبثًا ذهبتْ محاولاتي لفهم الأسباب. الكلام في الأمر صعبٌ. أنا عاجزة. لا أدري كيف أشرح الأمر! لو كان بوسعي أن أمحوَ تلك الفترة من حياتي. أن أتخلَّص من لعنة الذكريات. أودُّ أن أنسى أيضًا ما رواه عن أحداث الحرب الأهليَّة في بلاده، بلادنا: صراعٌ وحشيٌّ على السلطة. لم يكن يخرج إلَّا في أوقات وقف إطلاق النار. أثناء القصف، يجلس في الممرِّ، وسط البيت، يعزف على البيانو، تمرُّ ساعات وأيَّام، لا يقول شيئًا. وجهٌ كئيبٌ يُحدِّق إلى الموت. الخوف سيِّد السنوات. كان العالم غامضًا وعصيًّا على الفهم. لا أحد يفهم كيف تسير الأشياء. صراعات، وتحالفات، وانشقاقات، وانقلابات. حربٌ أهليَّة طاحنة، التهمت الأخضر واليابس.

مدنٌ كاملة بعد أنْ هجرها السكَّان، باتت مسكنًا للوحوش التي تتقافز فوق الأبنية الخربة، تتغذَّى على الجثث. بيوتٌ تحوَّلت إلى غبار، ومصانع إلى مستودعاتٍ للأسلحة. طرقاتٌ يُشمّ في هوائها رائحة اللحم المحروق، ويُسمع فيها أصداء لعنات المقتولين وعواء الكلاب، فيطغى شعورٌ شديدٌ بالعدم. كأنَّها تعرَّضت لهجوم من أبالسةٍ مفعمين بشهوة التخريب، جاءت بنيرانها على الأسواق والحدائق فأحالتها إلى رماد. مدنٌ قاتمة الألوان، سراب، لا شيء فيها صالحٌ للحياة. **لا أدري كيف نجا وأمِّي من الموت!** كنت أفهمني صغيرة، وكلَّما دارت عجلة السنوات فوق جسدي ضعت في نفسي. اعتقدت أنَّني جُننت، أو ربَّما جُننت بالفعل. كنت دائمًا أقول وأنا أنظر إلى داخلي: ابقي متماسكة، لا تستسلمي! أنا متاهة. لا أستوعب ما يحدث. العالم يغدو أكثر ضبابيَّة. مستنقعٌ من الوحل أغرق فيه. لا حقيقة. لا يقين. ما زلت أتوجَّع، أحسّ بحزنٍ يتدفَّق بشراسة.

مرَّاتٍ أبكي فجأةً، أشعر أنَّ أعماقي تتمزَّق. شيءٌ ملتبسٌ يحرق داخلي، لا أعرف ماهيَّته. أجدني ضائعةً في شوارع لا أعرفها، أدخل أزقَّةً معتمة يتسكَّع فيها لصوصٌ وسكارى، أضيِّع طريقي إلى البيت، فأذهب حيث تشاء لي الأهواء. أجلس عند باب كنيسةٍ أو حانوت، لا فرق، فالأماكن تغدو متشابهة. لا أطلب الكثير، أريد الحبّ. أريد الدفء وشيئًا من النسيان.

ليلة ولادتي كانت شتائيَّة، صرخت أمِّي دون أن يسمعها أحد، في بلاد الخراب والموت ـ كما أسمتها دائمًا. كانت ليلةً

مفعمةً بالأساطير والكوابيس والخيالات. جحظتْ عيناها، وشحبَ وجهها. دفعت بقوَّةٍ لإخراجي، لكنِّي بقيت متشبِّثةً بأحشائها. بعد ساعاتٍ من الصراخ، شققتِ طريقي إلى العالم. أمسكني الطبيب من كاحليّ، وصفعني على قفاي، لأُطلق تلك الصرخة المرعبة. تحدَّث أبي بتوجُّسٍ عن تلك الليلة. كنت أشعر أنَّ ثمَّة ما يخفيه. الحكايات ناقصة. التفاصيل غير واضحة. لا أعرفها إلَّا في فتات الأحاديث!

ليلة رأس السنة، قدَّم المنجِّمون توقُّعاتهم المشؤومة، فبينما كنت أرفس أحشاء أمِّي محاولةً الخروج، كانت الحرب في أوجِها بين الأحزاب المتصارعة. اليوم الذي أعقب ولادتي يشبه نهاية العالم. الاشتباكات المسلَّحة دفعت الناس للهرب نحو الحدود، بينما القذائف تنفجر فوق رؤوسهم حاملةً الموت.

من الذكريات التي أتشاركها مع أمِّي، تلك الليلة، حين أدارت لي وجهها للمرَّة الأولى. كانت تلهث وتتعرَّق وتتنفَّس بسرعة. لمَّا التقت عيوننا بالصدفة سألتها: هل انتهيْتِ من قذارتك؟ إذ قالت لي إنَّ النوم دون ملابس مع شخصٍ آخر قذارة! الليلة التالية وجدتني مطرودةً خارج الغرفة، وعندما حاولت فتح الباب اكتشفت أنَّه مغلقٌ بالمفتاح، طرقت الباب أكثر من مرَّة. بكيت وصرخت، لكنَّه ظلَّ مغلقًا في وجهي؛ وفوق ذلك كلّه، سمعت صوتها: أصبحتِ بالغة، عليكِ النوم وحدك. فكَّرت في هذا الشيء الخطير الذي يمارس في الداخل لدرجة أنْ تطرد أمٌّ ابنتها، فتتركها للعتمة.

صرت أتلصَّص مسترقَّة السمع عبر الجدران، كانت تصلني تأوُّهاتٌ ضبابيَّة، فقرَّرت التسلُّل إلى الداخل قبل دخول والديّ بثوان. اختبأت في خزانة الملابس. كانت كبيرة الحجم، قديمة، بلا أدراج أو مرآة، نخر السوس خشبها الرخيص الذي تفوح منه رائحة الجوز. في الظلام، شعرت أنِّي أختنق، كأنِّي في بئرٍ عميقة، لا هواء فيها، أو في بيتٍ مهجورٍ تسكنه كائناتٌ ماورائيَّة. حبست أنفاسي كي لا يسمعاني، وكنت مرعوبةً من افتضاح أمري. الظلام الحالك وتَّر أعصابي، ورائحة الملابس حفَّزت حاسة الشمّ. بقيت محبوسةً في رعب. خفت أن يفتح أبي دفَّة الباب. بعد حوالى ساعة، سمعت دويَّ لطمةٍ تلاها بكاء أمِّي وصرير أخشاب السرير. استطعت تحريك الباب، والنظر إليهما: رأيته يعضّ أمِّي المفزوعة من رقبتها، وهي تئنُّ موجوعةً من شيءٍ لم أتبيَّنه.

شقَّ قميص نومها بوحشيَّة. وبيديْه الغليظتيْن حاول تثبيت كتفيْها. آه.. وجهها. ألمٌ ونفور. سمعتها ترجوه: «لا أستطيع، أشعر بالقرف». دفنت رأسي بين الملابس، ثم أغمضت عينيّ وسددت أذنيَّ. الصوت لاحقني. أمرها أن تصمت وأنْ تفتح رجليْها. تخيَّلته، يحمل سكِّينًا يضعه على رقبتها. اصمتي. لا تفتحي فمك. في الخارج، جِيفٌ بشريَّةٌ تتعارك. كان المشهد وحشيًّا. صراخ. قسوة. حيوانات تنهش بعضها بعضًا. أجسادٌ تصطكُّ بخشونة. لم أفعل شيئًا، تجمَّدت الدماء في عروقي. رائحةٌ نتنة خانقة تدفَّقت وألهبت أنفي. لهاثٌ محمومٌ يتصاعد. ضحكة ذكر متغطرسٍ ينام مع امرأة تكاد تموت. بحثت عن

مخبأ! كانت ليلةً طويلةً لا تنتهي. بقيت في ذلك المكان المعتم أُعاني الاختناق ولسعات الألم. مع طلوع الفجر، لم تكن لديَّ طاقةٌ على الحركة. كنت جثَّةً باردة.

برتقاليّ

مدينة yes، **الغرفة**

8 أيلول، XXAX

7:30 صباحًا

فتحت عينيَّ على ضوء الصباح. النافذة مشرَّعة، ونسيم بحر الشمال منعش. تلهو أشعَّة الشمس الدافئة فوق البحر. كوب الشاي الساخن بين يديّ. أتحسَّس حرارته، وأشمّ رائحته التي ضمَّخت أنفي. رائحةٌ قويَّةٌ لخوفٍ مشوب بالحذر. أنا المرأة نفسها، في غرفتي، أطوف جيئةً وذهابًا، أُفكِّر، أطفو سحابةً من دخان، إذ أُبصر أمسي. نمت ليلة أمس، في وقتٍ متأخِّر، عاريةً تحت شراشف بيضاء. رأيت حلمًا جميلًا فيه شاطئٌ ورملٌ وسماءٌ بغيوم. طعم السكَّر في فمي. حبَّات عرقٍ خفيفٍ على نهديَّ. قلبي نبضه

هادئٌ ورائحتي دافئة. تذكَّرت: نمت، رقصت، دخت، دخَّنت، سقطت. كانت ليلةً مجنونة. عادةً أستمتع بالبقاء وحدي في البيت، أضحك بصوتٍ عال، وأتصرَّف بحَمَق. أصير طفلةً عابثة، أتشاجر مع الهواء، مع المرايا، مع نفسي. أكره النوم لأنَّه مضيعةٌ للوقت، وأحبُّ الاستماع إلى موسيقى «الروك أند رول». فركت وجهي بكفَّيَّ. جلست على السرير. انتبهت إلى قفَّازٍ مخمليٍّ في يدي اليسرى. أسود، ناعم الملمس. ما الذي أتى به من الصندوق الخشبيّ في الخزانة؟ قفَّاز أمِّي الذي كان يخفي تشوُّه يدها، أحتفظ به منذ وفاتها. أضمُّه إلى صدري، أشمّه كلّ ليلةٍ قبل أن أنام. أضعه على كتفي حينما أحتاج إلى يدٍ تربِّت. يزول التوتُّر والخوف ما إنْ ألمسه. انتبهتُ إلى ذراعي، كانت تبدو كبيرة الحجم تحت القميص. نقلت نظري إلى بطني، إلى ركبتيّ، إلى رجليّ. لا شيء يشبهني، كأنَّ الجسد ليس لي. أدركت أنَّها فكرةٌ لاعقلانيَّة، فحاولت طردها. عادت تطرق رأسي. مضيت مسرعةً صوب المرآة. نظرت إلى نفسي بعينيْن متَّقدتيْن محدِّقتيْن في تركيز. كان مخيفًا ما رأيت. لا يمكن شرحه. عصيٌّ على الفهم. عصيٌّ على التفسير. كنت أمِّي، أرتدي جسدها، العيون ذاتها تحدِّق إليَّ بتلك النظرات الحادَّة، تغضُّنات الوجه، القامة الطويلة، الشعر الكثيف. حدَّقت في وجهي. أدركتُ أنَّ العمر يمضي مثل قافلةٍ لا تتوقَّف. خبَّأت وجهي بيديّ، وددت الاختفاء. لا لا، هذه ليست كذبة. ربَّما أدخلتُ بعض الخيال، لكنْ ما مررت به.. أوه! هناك فراغات، أمورٌ غير مقنعة، ولكنْ، كان حقيقيًّا. جسدي كتلةٌ من الضباب، يتحرَّك، يتموَّج، له سياقه الحيويّ. اشتدَّت بي رؤيتي

لصورتي في المرآة. وجهٌ أصفر شاحب، وبقعٌ سوداء بدت قديمة. كنت أراني أهوي، وأتكسَّر مثل الزجاج. فجأةً، رأيت عالمي يغرق في محيطٍ غامض، وتحطَّمت آخرُ أرضٍ ثابتة تحتي. صرخت، صوتي تبدَّد في الهواء. كنت حبيسة خوفي من الجنون. كنت أتشبَّث بالعقل الذي تبقَّى لديَّ، محاولةً النجاة من الدمار. رأيت طيورًا جارحةً تنهش وجهي بمناقيرها، وتضربه بأجنحتها، محدثةً طنينًا شديدًا في رأسي. تشظَّيت إلى ملايين الذرَّات. أشحت بصري. وقعت على الأرض. ركضت صوب النافذة. القنابل تعلك المدينة، لم أكن هنا، تنفَّست عميقًا. مضيت صوب الحمَّام. وضعت رأسي تحت الصنبور. فركت وجهي بالماء البارد. عدت إلى الغرفة. قعدت على السرير. أغمضت جفنيّ. حاولت التركيز. قلت لنفسي إنَّها نوبة هلوسة، وستنتهي. وهم. خيال محض. من المستحيل أن أتحوَّل إلى أمِّي، أتكلَّم بصوتها، وأمشي بقدميْها. حدَّقت في السقف، وفكَّرت: كيف سأنجو من التحوُّل الغريب؟ كنت أفقد آخر اتِّصالٍ بالواقع، وأنا أتأرجح بجنونٍ فوق الهاوية. سمعت بكاء طفلةٍ يأتيني من الصالون. تسمَّرت مكاني أنظر إلى الباب. بدأ الصوت يقترب أكثر، كان رقيقًا وبريئًا. تجمَّدت مثل تمثال، ورحت أراقب صامتة. وقفتْ طفلةٌ عند الباب، ونظرت نحوي. لم أتبيَّن ملامحها بسبب العتمة. بدت غامضةً وملفَّعةً بالبياض. بعد أن أخذتْ تمشي بهدوء، عرفتها. لحظات لا تنتهي، كأنَّ المسارات جميعها تؤدِّي إلى الجنون. اقتربت الطفلة بجسدها كثير الندوب، ودمي يتدفَّق في عروقها، وأعصابي مخبَّأة تحت جلدها الرقيق. عادت، وليتها لم تعد!

الفصل الأول

رياح الجنوب

«3» امرأة متزوِّجة تجاوزت العشرين بقليل، تعيش في منزلٍ بثلاث حجراتٍ مبنيَّةٍ من الطوب الأحمر، سقفه صفيح، أرضيَّته حصائر قشٍّ، أمامه باحةٌ صغيرة تنتصب حولها أشجار صنوبر عتيقة، يقع على تخوم الوادي في الناحية الجنوبيَّة لقريتها. بينما كانت، شأن جميع نساء القرية، تحضِّر طعام العشاء لعائلتها الصغيرة، وتتبادل الحديث مع زوجها، هدرت محرِّكات خمس شاحناتٍ محمَّلةٍ بالجنود في طريق القرية. كانت الإطارات تئنُّ لوعورة الطريق. بعد نصف ساعة، حاصر الجنود القرية مغلقين منفذها الوحيد. توقَّفت الشاحنات أمام المقهى. هبط الجنود بأسلحتهم مقتحمين المكان. أخرجوا الرجال وأعدموهم رميًا بالرصاص، في حين اقتادوا النساء المذعورات، بأعقاب البنادق،

إلى باحة الكنيسة، يصرخن بحناجرَ مرعوبة، والعرق يتصبَّب من وجوههنَّ على الرَّغم من برودة الهواء.

تساقط الثلج بكثرة. ارتفع صراخ الناس. احتدَّ بكاء الأطفال. لفظت الأجساد أرواحها، وأغلقت البيوت أبوابها بعنف، بينما حاول أصحاب بيوتٍ أخرى الهرب قبل وصول الجنود. أمر قائد الفصيل بحرق المقهى، فارتفعت ألسنة النار في السماء. كانت الرياح شديدة، تمرّ بين المرتفعات مقتلعةً أسقف البيوت. عاصفةٌ ثلجيَّة لم تعرفها القرية من قبل. لا شيء سوى البياض والنار والجثث. تقدَّم الضابط بين الجنود معلنًا تعليماته العسكريَّة، واثق الخطى دون شعورٍ بالذنب، في عرضٍ مثيرٍ لمظاهر السلطة.

ليلة اغتيال الرئيس، شرع الجيش وميليشياته بتنفيذ خطَّة إبادةٍ جماعيَّة في مدَّةٍ لا تتجاوز ثلاثة أشهر: قتل المعارضين، وأقلِّيَّة تعتبرها السلطة رأس التمرُّد. بدأ القتل بحسب الهويَّة على الحواجز، وفي القرى المناوئة. كان هدف الحكومة المركزيَّة إبادة مليوني إنسان، أسمتهم بـ «الأفاعي السامَّة».

اقتحم الضابط بيت «3». كانت مختبئةً مع ابنتها وراء ستارة المطبخ، وبسبب الذعر الشديد الذي جمَّدها، ضغطت بقوَّةٍ على فم الصغيرة. لمَّا انتبهت لتوقُّف ابنتها عن التنفُّس، كان الوقت قد فات. خرجت من وراء الستارة مذعورة، تصرخ بجنون، تحاول إعادتها إلى الحياة. فوجئت بالضابط يقف أمامها. رفعت جثَّة ابنتها لتُريه المأساة تسأله الرحمة، بكت بمرارة، زحفت على

سجَّادة الصالون، أمسكت ساقه، ركلها في بطنها المرتخي منفجرًا بالضحك: «اسمعي، لن أقتلك، لكنِّي سألطِّخ وجهك بالطين». حين سمعت «3» هذه الكلمات، تراجعت من هول ما سمعت، تمنَّت لو أنَّها ماتت في بحر. لم تتخيَّل يومًا أن تتحوَّل المروج الخضراء إلى حقولٍ للموت. ارتمت عند قدميْه، من جديد، تذرف دموعها: «أرجوك! لا تهتك عرضي، أنا امرأةٌ متزوِّجة». لم يُبْدِ تجاوبًا. لطم رأسها بحذائه الثقيل، فأصابها بجروح. سال دمها. جرَّها من شعرها إلى السرير. رماها بعنف. شقَّ منامتها. تبصَّر في صدرها الطافح بحليب الطفلة الميِّتة. أدرك الصيَّاد أنَّه وقع على جسد امرأةٍ يتدفَّق بالحياة، فقرَّر برغبةٍ ساديَّة اغتصابها. جاهد لسانه الولوج في فمها، لكنَّها أغلقته بشفتيْها المتيبِّستيْن. انقطعت أنفاسها. حاولت التفلُّت منه، لم تستطع، ثبَّت رسغيْها بقوَّة. أخذ يلجها بوحشيَّة. صوتها مخنوق. دموعها تندفع خارج عينيْها المحتقنتيْن. ذئبٌ جائعٌ يلهث وراء دم فريسته.

كان يصرخ بها كلَّما توسَّلت أن يعتقها ويرحمها من العذاب: «همجيَّة قذرة»... «عاهرة متوحِّشة»... «خائنة الوطن». ويسألها: «هل يعجبك هذا؟ خذي! اصرخي يا كلبة»، يهتاج أكثر ضاحكًا بهستيريَّة. ضرب ظهرها بقبضته. صرخت ألمًا، فشدَّ بيده الأخرى على فمها. انتفضت فوق السرير محاولةً الهرب، إلَّا أنَّه أمسك بها، أوثق يديْها، فصارتا مغلولتيْن.

استخدم جنوده التعذيب في استجواب رجال القرية، بمن فيهم زوجها، قبل إعدامهم مقيَّدين ومعصوبي الأعيْن رميًا بالرصاص. كانت أكوام الجثث تنتشر في الأزقَّة والساحات

الخلفيَّة. أجسادٌ مشقوقة، حناجر مذبوحة بالخناجر، أطفالٌ مَزَّق الرصاص لحمهم وأدمغتهم. أمَّا النساء فقد جرَّدوهنَّ من ملابسهنَّ، ثم ثبَّتوا أيديهنَّ وأرجلهنَّ إلى الأرض بأوتادٍ حديديَّةٍ لاغتصابهنَّ حتى الموت. فتاةٌ في الخامسة عشرة، مزَّقوا ملابسها وجرُّوها خارج منزلها إلى شجرة صنوبرٍ وحيدة، وتناوب على اغتصابها عشرة جنودٍ قبل أن يقتلوها بضرب رأسها في جذع شجرة. رويدًا رويدًا، لفَّ الصمت المكان، فيما أخذت كتل السحب الثقيلة تلقي حمولتها. البرد قارس، الظلام حالك، الفضاء صامتٌ يخترقه صراخ نسوةٍ مغتصباتٍ وضحكات جنود منتشين بالنصر.

نهض الضابط عن جسد ضحيَّته. كم فتنته هذه المرأة! وقف ينظر إلى عينيْها العميقتيْن الغارقتيْن بالدموع. بحثت عن الشراشف لتخفي جسدها. أدارت وجهها حرجًا ودفنته في المخدَّة. كانت تنزف مبتلَّةً بالعرق. أثاره ضعفها، وليُظهر ساديَّته اغتصبها بعدوانيَّة أكبر. رأت حياتها في شريط صُوَر: وجوه زوجها، ابنتها، والدها، أمّها، حظيرة الأغنام، قفص الدجاج، سكَّة الحديد القديمة، ليلة زفافها، وقوعها في بئر، صديقات طفولتها، رحلات الصيد. انتظرت أن يُطلق سراحها، فالروح عالقة في حلقها، توشك على الخروج. جسدها منقبض، وعظامها مسحوقة، والبرد ينتشر في كلِّ خلاياه. سئمت العرق. خنقتها أنفاسه النتنة المشبعة برائحة التبغ. شعرت بيديْه الفظَّتيْن تضغطان بلا رحمة، وأظافره تنغرز في لحمها. أسدل على روحها ستارةً سميكة لا ينفذ منها الضوء. بيتها البسيط، انتهت أسباب البقاء فيه. ما الذي ستفعله

في العمر القادم؟ أيُّ إيمانٍ سيُنجيها من الهلاك؟ بعد كلّ اغتصاب، تصحو على نفسها، كأنَّها رُميت في أرضٍ غريبة. مذعورةً ممَّا سيحدث في الجولة القادمة. جولات ألمٍ وقرفٍ وتعذيبٍ نفسيٍّ. لطالما كانت تعيش حياةً هادئة منعزلةً حتى اشتعلت الحرب. امرأةٌ خجول، عالمها البيت وأولادها. في تلك اللحظة، شعرت بالخزْي من نفسها. استولى عليها الخوف، وتوالت على رأسها ذكريات الطفولة. بقيت قابعةً مكانها، يابسٌ جسدها من شدَّة البرد. الرعب شلَّها إذ ترى موتًا لا مفرَّ منه، فبعد أن يقضي الوحش وطره سيقتلها. سمعت صوت أقدامٍ تبتعد، فكَّرت، قتلني مرَّتين. الأولى عندما اغتصبني، الثانية عندما تركني أعيش. انطفأتْ في غيبوبة. رأسها ثقيلٌ ينزف على المخدَّة. عيناها متورِّمتان. بصاق وكدمات على رقبتها. رضوضٌ في أرجاء جسدها. تركها محطَّمةً غارقةً في البؤس.

رجعت تتفقَّد جثَّةَ طفلتها. عندما رأتها جثت على ركبتيْها. استيقظت من صدمتها. شدَّت شعرها ولطمت صدرها. زحفت تشهق باكيةً. كانت في حالةٍ تُشبه الغيبوبة. حملت الطفلة الميِّتة، ونظرت إلى وجهها ناصع البياض. سمعت النساء صراخها، فهُرع بعضهنَّ إليها. ساعدنها على النهوض، ثم أعطينها بعض الأدوية، ورحن يواسينها. كان شعرها متلبِّدًا بالبصاق ووجهها محمرًّا من الدم الذي سال من صدغها.

ظلَّت ممدَّدةً مشوَّشة الذهن في سريرها، متجمِّدة بلا حراك، عيْناها فارغتان. بعد ساعات، فكَّرت بالذهاب إلى الحمَّام. زحفت مخدَّرة. بعد أن تخلَّصت من ملابسها القذرة، جلست فوق

دلوٍ حديديٍّ. جهَّزت أغراض الاستحمام، وفتحت صنبور الماء، وأرغت الصابون، ثم بدأت بفرك جسدها. رغبت في نزع جلدها ورميه بعيدًا. تذكَّرت أيَّام الماء. شعرت نفسها مدنَّسة. واصلت تنظيف جسمها بالصابون. وضعت الليفة على عضوها وفركته بقسوة. كرهت جسدها. تمنَّت أن تقتل نفسها لتتخلَّص من شعورها بـ «العار». لماذا يُقتل الإنسان بهذه الوحشيَّة؟

تذكَّرت رأس زوجها المقطوع. صرخت، وهي تغتسل تحت الماء البارد، أخذت قرار الرحيل من الجنوب. لا تريد سماع أيّ شيءٍ عن الحرب القذرة، بعد أن دفعت حياة زوجها وابنتها وكرامتها ثمنًا غاليًا في نزاعٍ عبثيٍّ لا شأن لها به.

الفصل الثاني

وحوشٌ على الطريق

كانت الطريق مقفرةً إلَّا من الدوريَّات العسكريَّة، ونقاط التفتيش، وجنود الجيش النظاميّ، ومواكب تشييعٍ متوجِّهة إلى المقابر. شعرت «3» بالندم لأنَّها لم تدفن زوجها وابنتها في قبريْن منفصليْن، وإنَّما في مقبرة القرية الجماعيَّة. بسبب كثرة الجثث، اعتاد الناس دفن موتاهم بعجالة، إذ لا مجال لمعاملةٍ لائقة، ولا ترفٍ لطقوس الموت الأخيرة، يلقون بالأجساد الممزَّقة في حفرةٍ واحدة، ثم ينتهي كلّ شيء. تذكَّرت اللحظات الأخيرة في قريتها. والنساء ودَّعنها بحرارة، وعانقنها بتعاطفٍ كبير. ولمَّا صعدت إلى الحافلة لوَّحن لها بمناديلهنَّ المبلَّلة. لم تجد القوَّة لترفع يدها، بقيت منكسرة، ترتجف من مستقبلٍ غامضٍ ينتظرها. كانت تعرف أنَّها لن تعود. مسحت بعينيْها

الغائمتيْن بيوت القرية، للمرَّة الأخيرة، قبل أن تشقَّ الحافلة طريقها في الجبال الوعرة. سمعت طوال الرحلة دويّ الانفجارات، وأصوات الرصاص، وراجمات الصواريخ، ورأت الطائرات تقصف الجبال التي يتحَّصن بها الثوَّار. النار تشتعل في الغابات البعيدة. الجثث المتروكة تتفسَّخ على جوانب الطرق. تسير وسط جحيم المعارك، ورائحة اللحم المحروق تلاحقها. الطريق خطيرة. المدينة التي تقصدها تبعد مسافة ساعتيْن، لكنَّها قرَّرت بشجاعة الرحيل عن قريتها. تريد الهروب بعيدًا عن طيف زوجها المكفَّن بالسواد، وعن رائحة طفلتها المقتولة. الذكريات الماضية تسوطها بعنف، والأرض تحوَّلت إلى مقبرة.

أصغت لحكايات ركَّاب الحافلة. متعة السفر في الأحاديث الطويلة. تحدَّثت أمٌّ مكلومة عن ابنتها التي اغتصبها الجنود أيَّامًا قبل قتلها، وابنها الذي تعرَّض للضرب وقلع الأظافر والصعق بالكهرباء، فخرج من السجن منهارًا، يصرخ في الليالي الكئيبة، ويهذي بكلماتٍ مبهمة. ثرثر أُناسٌ خائفون، عيونهم باهتة، الموت يُخيِّم على وجوههم، عن مجازر، يقسمون أنَّهم رأوها تحدث أمامهم. في منتصف الطريق، أشار جنديٌّ إلى سائق الحافلة بالتوقُّف. رأت على يمينها ثكنةً عسكريَّة، يرفرف فوقها علم الدولة، أمامها أكياس رملٍ وحواجز إسمنتيَّةٍ ضخمة، ينتشر على سطحها قنَّاصون مستعدُّون للقتل. دقَّ قلبها باضطراب. ارتجَّ جسدها خشية اغتصابٍ جديد. فتح السائق باب الحافلة. هبط الركَّاب بحذر. صعد الجنديّ ليفتِّش. كان زيُّهُ العسكريّ متَّسخًا

تفوح منه رائحة المعارك. كادت «3» أن تتقيَّأ لعفونة ملابسهم وسوء رائحتهم وخبث عيونهم. لحظاتٍ قاسية، تراهم يسيرون أمامها مجهَّزين بالعتاد الحربيِّ وبتقنيَّاتٍ حديثة، لا تملكها سوى الدول العظمى، عضَّت على جروحها الخفيَّة، كي لا تصرخ في وجوههم. كان الحاجز الأوَّل بين حواجز خمسة قبل وصولها إلى أطراف المدينة. الطريق التي تحتاج في الظروف الطبيعيَّة لساعتيْن، قطعتها الحافلة بسبب كثافة الحواجز الأمنيَّة في سبع ساعات. الإجراءات نفسها من تدقيق أوراق، بطاقات شخصيَّة، بحث عن مطلوبين، اتِّصالات مع فروع المخابرات، الرجوع إلى الملفَّات المركونة بالآلاف. مرَّت الحافلة عن قرى محاصرة، ومبانٍ مدمَّرة، وهياكل دبَّابات، ومدافع محترقة، كان الخراب يُحيط بها من كلِّ الجهات. تفاجأت بشوارع المدينة مزدحمةً بعرباتٍ عسكريَّة محمَّلةٍ بالجنود، وسيَّارات إسعافٍ مسرعة، وأرتالٍ من الدبَّابات المتوجِّهة إلى جبهات القتال. جنود غاضبون ورجال مخابراتٍ يسيرون في الشوارع، يبصقون على المشاة شاتمين المعارضة، هاتفين باسم القائد، مطالبين بالانتقام من خَوَنة الوطن. صُوَر قتلى الجيش معلَّقة بالمئات على الجدران. بصقت باتِّجاه الصور شاتمة: قتلة، كلاب، مجرمون. سينتقم الضحايا من جلَّاديهم لتثلج صدور الأمَّهات المكلومات والأخوات المُهانات. سيقاتل الثوَّار حتى آخر رجل. الانتقام من الطغاة عدالة يستحقُّونها على جرائمهم. تودُّ رؤية القتلة مسحولين في الشوارع، تمتلئ بهم السجون. أهذه مدينة أم كابوس؟ الأحياء مشاريع موتى. الموت يحاصر الجميع. تحوَّلت المدينة إلى ركام

أبنيةٍ مدمَّرة، ومشافٍ مكتظَّة، ومقابر جماعيَّة، وحواجز للقتل. طريقٌ موحشة وطويلة. قيظ الظهيرة، وأصوات القصف، وحشود الأحياء والموتى، أدخلها في حالةٍ من الهَذَيان المحموم، ثم فقدان الوعي.

الفصل الثالث

هل أواجه العالم وحدي؟

استردَّت «3» وعيها في مستشفى المدينة. كانت خَدِرة تشعر بالغثيان. بصعوبةٍ حرَّكت رأسها. رأت جرحى يئنُّون في أسرَّتهم، وأطبَّاء بملابس بيضاء، وممرِّضات. تَوجَّه إليها أحد الأطبَّاء مُطمئنًا، «فقط كدمات في جسمكِ وبعض الرضوض»، أمرها بالتزام الصمت إلى أنْ تتحسَّن حالتها، ويصبح بإمكانها الخروج. لم يصلها أيّ تقريرٍ طبِّيّ، سواء لحالتها الصحِّيَّة، أو كشفًا لما تعرَّضت له من اغتصاب. كانت الأمور تجري بهذا الشكل. الرعاية مقابل الصمت، لأنَّ الكلام يكلِّف المريض حياته. راقبت عمَّال النظافة يمسحون الأرض، فكَّرت في تنظيف جسدها. أصابتها هستيريا بكاءٍ وصراخٍ حادَّيْن. ذكرت اسم الإلٰه خائفة. شعرت أنَّ الحياة ليست أكثر من ظلماتٍ فوق ظلمات.

لا تريد الخروج. تكره رؤية الناس. حلقها جافٌّ مشاعٌ للملح. جسدها لا ينتمي إليها، مظلم أضاع ألوان بهجته. يصَّاعد الليل في داخلها. يتكثَّف. تتألَّم. تعوي من جرحٍ تناضل لوقف نزيفه.

التفتت إلى النافذة القريبة من سريرها، كانت كلّ الأشياء صامتة، ثم أشاحت نظرها إلى البياض الذي طالما خبَّأت فيه أحزانها. شعرت بألمٍ شديدٍ ينبض في رأسها، حاولت أن تتذكَّر ما جرى لها، لا شيء سوى البياض. الفضاءُ قبرٌ ضيِّق. الارتجاف يسري في أوصالها، فينبت تحت جلدها شوك القلق. صباحًا، أبلغها الطبيب بضرورة المغادرة. لم يكن بحوزتها شيء. هبطت الدرج متوجِّهةً إلى الشارع. على الرَّغم من أنَّ الوقت نهار إلَّا أنَّه كان أكثر ظلمةً من الليل. أحسَّت الظلام يرتديها، وينسلّ إلى خلاياها. ظلامٌ ثقيل، مختلفٌ عن كلّ ظلام عرفته. اجتاحها شعورٌ بالخوف. ما الذي أتى بها إلى هذا المكان؟ كيف انقلبت حياتها، فجأةً، رأسًا على عقب؟ ما الذنوب التي ارتكبتها لتُعاقب بالتشرُّد؟ ظلَّت الأسئلة حائرةً بلا جواب.

جمعت ما بقي منها وانسلَّت كشتيمةٍ من فم المستشفى، تأكل الطرقات أصابع قدميْها الحافيتيْن. سارت بين المارَّة لا تبالي بشيء. عبرت شوارعَ غير مطروقة. ما عادت تخاف الاختطاف أو الاغتصاب. تعرف أنَّها قد تتعرَّض لما هو أسوأ في مدينةٍ ينتشر فيها اللصوص والمجرمون، على الرَّغم من ترك بيتها، والابتعاد عن أحبَّائها، وعن الحياة البسيطة المستقرَّة التي ألفتها.

بينما كانت تخطر ببالها هذه الأفكار، رأت مطعمًا صغيرًا يقدِّم وجباتٍ شعبيَّة. دخلته. جلست إلى طاولة قبالة المدخل. كان المكان لامرأةٍ خمسينيَّةٍ ورثته عن والدها. مات زوجها في الحرب. لديها بيتٌ تعيش فيه وحدها. جلبت لـ «3» فطورًا. تحدَّثتا. ولمَّا عرفت أنَّ «3» امرأةٌ وحيدة، خرجت من المستشفى للتوّ، اقترحت عليها المكوث في بيتها حتى تهدأ الأوضاع. بعد أنْ وصلت إلى البيت، أعطتها ملابسَ وشبشبًا خفيفًا. استأذنت «3» الدخول إلى الحمَّام. نظَّفت جسمها بالماء والصابون، المرَّة تلو الأخرى. تشمَّمت جلدها، بدت رائحتها كريهة. على الرَّغم من سوائل الاستحمام، والتكرار في الدعك، إلَّا أنَّها ظلَّت تشعر نفسها قذرة. بعد خروجها من الحمَّام، حدَّثتها العمَّة عن الحرب، وكيف مات زوجها. لم تكُ «3» تريد سماع أيّ شيءٍ عن الحرب، أحسَّت العمَّة بذلك، فشرعت في حديثٍ آخر. قالت إنَّها رفضت الزواج، على الرَّغم من كثرة الرجال الذين تقدَّموا لها. لا تريد تكرار التجربة. مرتاحة ووضعها جيِّد.

في أحد الأيَّام، ذهبت العمَّة كالمعتاد إلى المطعم. قبل الظهر، تفاجأت «3» بدخولها محنيَّة ظهرها، تشتم بصوتٍ عالٍ، وعندما رفعت وجهها، ظهرت كدمات زرقاء تحت عينيْها المنتفختيْن. كانت في المطبخ تطهو حين اقتحمه جنود قبيلةٍ موالية للنظام. خمسة رجال جلسوا إلى إحدى الطاولات. طلبوا الأطباق والمشروبات. ضحكوا على نكاتٍ مبتذلة. تحرَّشوا بالنادلة. حين طلبت منهم دفع الحساب رفضوا. لم تصمت،

طالبت بحقِّها، قالت لهم إنَّ هذا لا يجوز، فكانت الصفعة أقوى ممَّا توقَّعت. تقدُّمها في العمر لم يمنع إذلالها. كأنَّ الحياة صفعتها، انكسرت، طأطأت رأسها ولم ترفع عينيْها. غادرت المطعم دون أن تتفوَّه بكلمة. دخلت إلى غرفتها وأغلقت وراءها الباب. رفضت الأكل أو الحديث. في وحدتها، تحلَّقت حول شعورها بالخجل. تركت روحها المهانة، وعادت إلى بيتها مجرَّد جسد. تحسَّست تورُّم وجهها، الرضوض في ساعدها الأيمن. حرَّكت أصابعها ببطءٍ شديد فوق الجروح. يبدو الشقاء قدرها، عليها أن تُجاهد كي لا تنهار.

في ذلك الوقت، كانت «3» تعضّ على جروحها. تحارب قطيع الوحوش داخلها. تشعر أنَّها علبةٌ صدئة لا فائدة منها. عبثًا حاولت خلع ذكرياتها. الليالي باردة. رائحة جسدها تخنقها. ترتجف. تتفصَّد عرقًا غزيرًا. يتفتَّت جلدها كلَّما لمسته ريحٌ خفيفة. الدمعة محتبسةٌ في عينيْها المطفأتيْن، الغصَّة عالقة في حلقها، تحاول أن تفتِّش بين طيَّات ذاكرتها عن أشياءَ صغيرةٍ تسعدها. كلّ ما أرادته أنْ تعيش حياةً طبيعيَّة، مثل أيَّة امرأة، لم تفكِّر أنْ ترتكب جرمًا، أو أن تقلب نظامًا سياسيًّا. ذهبت إلى السرير مكسورة القلب، وحيدةً حدَّ التبعثر. حاولت القبض على رأسها لتوقف تسرب التفاصيل من ثقوب الذاكرة. شعرت بالخمول. الجوّ كان سيِّئًا في الخارج، عواصف رعديَّة، أمطار غزيرة، سحبٌ سوداء بدت عبر زجاج النافذة جبالًا ضخمة لا تبرح مكانها.

حاولت أنْ تغمض عينيْها، وتنام للحظات. لا شيء سوى الأرق. سنوات العمر العشرين تتساقط مثل أوراق الشجر. هل لي أن أواجه العالم وحدي؟ سألت نفسها.

أسبوعٌ كامل والأمطار تتكسَّر على النوافذ بلا توقُّف.

امرأةٌ وحيدةٌ لا تخرج، مهزومةٌ في العمق.

الفصل الرابع

بعض الأمور تحتاج إلى وقت

غرقت «3» في رتابة الأيَّام وقسوتها. خسرت كلّ شيء. جرَّبت حبس دموعها لنهارٍ واحد، فشغلتْ نفسها بالعمل: مسح الغبار عن الأثاث، شطف أرضيَّة البيت، غسل الصحون، ترتيب الملابس، تبديل الستائر. اختارت دور المحارب لتستردّ ما تبقَّى من روحها. لم يخطر ببالها أنَّ ما ينتظرها سيغيِّر حياتها. لمَّا ظنَّت أنَّ الكارثة صارت خلف ظهرها، وما عليها غير مقاومة أعراضها، اكتشفت بأنَّها تعيش داخل الضحيَّة، في بطنها تحديدًا. هذه المرَّة، جاءتها الكارثة في هيئة جنين ـ ليتها قُتلت في المجزرة! لمَّا تأخَّرت دورتها الشهريَّة، وشهدت الرعب الذي تركه في قلبها.

بعد شعورها بالغَثَيان، وتقيُّئها أكثر من مرَّة، خمَّنتْ أنَّها حامل. هل وضع المغتصب في رحمها قنبلةً ستنفجر بها؟ وهبها أمير الحرب فجيعةً تقتات على دمها. ضربت بطنها وبكت بحسرة. تمنَّت أنْ يموت، يخرج دون أن تراه. قرَّرت الذهاب إلى عيادة للفحص. كانت تُدرك أنَّها حامل. هذه ليست مزحة، حملُ بذرةٍ لا تعرف صاحبها! أعادت مشهد تلك الليلة، زوجها.. ثم مغتصبها. شتَّان بين الأمريْن. لو كانت تعرف أنَّ الأمور قد تصل إلى الحمل، لذبحت نفسها بالسكِّين. أحسَّت ـ وهي امرأة الكارثة ـ بالوحش في رحمها. دم الكارثة يفتح شهيَّة الذئاب. لعبة دومينو، ما إنْ تسقط قطعة حتى يبدأ الانهيار.

أشارت الفحوصات أنَّها حامل. ولأنَّها تعرف رعب العالم، فكَّرت بالإجهاض. لا يهمّ. «لا أريد للماضي أن يتنفَّس فيّ». خرجت من مجزرة، وها هي تدخل في أخرى. أفاقت من صدمة الاغتصاب على واقعةٍ جديدة. لمع في ذهنها وهي عائدةٌ إلى البيت أنْ تقتل الجنين. انتشت بفكرة موته. بعد نومٍ طويل، تفتح عينيْها فتجده قد تلاشى. تُبصر نهاية الطريق. تعرفُ أنَّها لن تطيق سماع بكائه. ما هذا التورُّط؟ كلّ مشاعر الندم لا تكفي. أفكار كثيرة عبرت رأسها، طاقاتٌ صرفتها لفهم ما حدث. فراغ ما تجده في طريق بحثها عن المعنى. لِمَ الإفراط في الألم؟ كانت زوجةً صالحة، أُمًّا طيِّبة، سيِّدة بيتٍ سعيدة. الآن سيُشيرون إليها: «مغتصَبة، وحامل بابن زنا». كيف تحسُّ الضحيَّة بالذنب؟ ما معنى الزمن والساعة تُشير إلى اقتراب الكارثة؟ لا جدوى من التمسُّك بالمبادئ أو الضمير! سيهمس قلبها إنَّ الجنين بريءٌ لا

ذنب له، قد يكون ابن زوجها الذي دفنته بيديْها، بينما تصرخ الأشياء داخلها لتتخلَّص من آثار الكارثة. «سيستنزفني الطفل، ويسرق ما تبقَّى من فتات عمري».

خائفةٌ من نفسها ومن المجتمع. صارت تحدِّق إلى بطنها أغلب الوقت. تشعر بكائناتٍ خفيَّةٍ تمتصّ قوَّتها. جرَّبت عواطف الأمومة ولا تريد تكرارها. كلّ كينونتها غير العابئة بحياة الطفل تسعى إلى إجهاض أيّ رغبةٍ بالإنجاب. داهمها خوفٌ أنَّ الحياة لا تتوقَّف عن خداعها، لذا وصلت نقطة اللارجوع. تتحسَّس التكوُّر، الكتلة اللحميَّة، تشكُّل الكائن الغريب، تائهة، وقلبها كالفراغ، تنتظر حياةً ليست من خياراتها. فُرض عليها وجود جنينٍ غير مرغوب به، يضغط بثقله ليعلن الفضيحة. تمسِّد بطنها، وتقول لنفسها إنَّ الكارثة هنا، في هذه المساحة المنكوبة، ستطلُّ برأسها يومًا، مبرهنة على طغيان الجنود وهشاشة داخلها. الجنود يتركون خلفهم نساءً معطوباتٍ بالأوجاع. رفسات حيوانٍ صغيرٍ لن يظلّ كتلةً لحميَّةً بعد الولادة، بل سيتحوَّل لعارٍ يمشي على قدميْن، ويحمل عار أمِّه وبلادها.

بعد أيَّام من البكاء المرير، أمسكت العمَّة يدها بلطف، قالت: «يا ابنتي، استجمعي قوَّتك. الطفل لا ذنب له، لا تقتلي روحًا داخلك». فكَّرتْ في تناول الأدوية، غير أنَّها خشيت العواقب. أخذت موعدًا عند طبيبٍ ليُجري لها العمليَّة. حاول إقناعها بالإبقاء عليه. قال لها إنَّ العمليَّة خطيرة، الأفضل أن تراجع قرارها. عندما أسمعها دقَّات قلب الجنين عبر الجهاز الطبِّي، تفجَّرت داخلها مشاعر الأمومة التي تنكَّرت لها. أذابت

نبضاته مخاوفها. هزَّت رأسها موافقة. قرَّرت الإبقاء عليه نكايةً بالعالم. الطفلُ ملحٌ نبت في أعماقها ليحفظها من العفن. وجوده معناه أنْ تخرج من دائرة الوحدة، سيأتي ببكائه وضحكه ليملأ عالمها الكئيب. تعثَّرت في طريقها بسببٍ غير متوقَّعٍ للانتظار. ستنتظر، وفي ذلك حياة. الطفل فرصةٌ أخيرة للحبِّ، وممارسة هوايتها في العطاء.

بعد أن خرجت من العيادة، مشت على ساحل البحر. رأت النوارس والقوارب والأطفال الذين يلعبون بالرمل. كانت السماء صافيةً، والهواء نظيفًا تتفتَّح له مسامات الجلد. تبدو المدينة من مكانها خلَّابة. واصلت سيرها حتى وصلت حديقةً تتوسَّط أحد الأحياء. كانت مكتظَّةً بالأمَّهات والأطفال. جلست على أحد المقاعد مثقلةً بالهواجس. ظهر على يسارها رجلٌ أنيقٌ برفقة زوجته، يدفع عربةً فيها طفل. بدت العائلة كأنَّها انبثقت من عالم بعيدٍ لا شأن لها به. إنَّه جرحٌ غائرٌ وقصَّةٌ تطول. تتحرَّق لحياةٍ طبيعيَّة: أن تدفِّئ تخت رجلٍ تحبّه كما يليق بعاشقة، وأنْ تنام دون كوابيس.

بغتةً، إذ تُقلِّب أفكارها، رأت زوجها قادمًا من طرف الحديقة. انتفضت مكانها ونبض قلبها بعنف. ما إنْ وصل حتى جلس على المقعد نفسه.

ـ من أنت؟

لم تأتها الإجابة التي كانت تنتظرها. قال لها بصوتٍ واثق، لكنَّه حزين:

ـ تخلَّصي من الطفل.

شدَّت على بطنها.

ـ هل جننتِ؟ إنَّه من صلب قاتلي ومغتصبك. أجهضيه، لست بحاجةٍ إلى مجرمٍ جديد.

شعرت بكوكبٍ ارتطم بها. ها قد عاد أكثر فظاظةً ليشوِّش أفكارها. الأموات لا يتخلَّون عن الحياة بسهولة. يعودون إلى العالم لتصفية حساباتهم مع الأحياء. لم تفهم ما الذي يفعله زوجها، بدأت بالصراخ. كانت أمٌّ تدفع عربتها فاندفعت نحوها، ومع ارتفاع صوتها تجمَّع حولها الناس. لاحظت بعد استيقاظها أنَّها بين غرباء. احمرَّ وجهها، كانت محرَجة، فابتعدت عن المكان مهرولة.

أرادت تأثيث عالمها بالبساطة ورائحة رجلٍ يحبّها، فتزوَّجت في الثامنة عشرة. كان زوجها يعمل مثل أغلب رجال القرية في حقول الذرة. علَّمها استخدام بندقيَّةٍ قديمة لصيد الأرانب والغزلان. أخذها إلى الغابات، وصعد بها الجبال. أراها القطار المحمَّل بالمعادن عابرًا السهول. أركبها على حصانٍ أصيل وعلَّمها فنون الحبّ. ولمَّا كان يحدِّثها حكايات سمعها من رحَّالة وقراصنةِ بحار، تتشكَّل غيمةُ سعادةٍ على وجهها، وتشرع في ثرثرةٍ لا نهاية لها عن جدِّها العاشق للكتب، وعن بيت طفولتها بحجارته التي ترشح بالذكريات.

لم تجد العمَّة في المنزل. مترنِّحةً من التعب، أخذت تمشي نحو غرفة نومها. تمدَّدت على السرير بملابسها. حاولت بالنوم

إغلاق باب القلق الذي انفتح في رأسها، غير أنَّ كابوسًا مخيفًا كان بانتظارها، وفوضى من الأصوات.

تنمو نبتة الموت في الرأس، فيصبح الجسد جثَّةً تتحرَّك. تشعر أنَّها علبة كبريتٍ أُضرمت فيها النار.

الفصل الخامس

حين لا يمكن للإنسان الضحك

بقيت «3» مستلقيةً على السرير. وجهها ناحية الحائط، تغمض عينيْها وتضع يدها على بطنها المنتفخ. لا تدري في أيِّ أسبوع حملها. أحسَّت بالجنين يركل متعجِّلًا الخروج. جسمها متوتِّرٌ يشعر بالبرد. لفَّت نفسها بغطاءٍ آخر. مشاعرها مضطربة. تشعر بأنَّها تحبّ الطفل وتكرهه. تريد أن يكون لها كلّ شي، ولا تريد أن يكون لها أيّ شيء. خائفةٌ من المصير الذي ينتظره. كيف ستحبّه؟ كيف ستنظر في وجهه الذي يذكِّرها بالمغتصِب؟

دخلت العمَّة وجلست على حافَّة السرير. قالت لها برقَّة:

ـ يا ابنتي، أرجوك. هوِّني عليك.

ـ أنا بخير.

ـ لعلَّ الإلٰه بعث هذا الطفل ليزرع الفرحة في قلبك، ويعوِّضك.

ـ سيعيش حيث يغتصب الآباء بناتهم، وتتعرَّض النساء للعنف.

تشعر بالتعب ولا طاقة لها للحديث.

سألتها العمَّة:

ـ هل أنت جائعة؟

ـ لا رغبة لي.

أقنعتها بالذهاب إلى الحمَّام. بعد أن غسلت وجهها، توجَّهت نحو المطبخ. بدا الفطور شهيًّا، لكنَّها اكتفت بلقمتيْن. شعرت برغبةٍ في التقيُّؤ. بقيت جالسةً دون حراك. قالت العمَّة بصوتها الدافئ:

ـ جهَّزت لكِ سَلَطة خضار، فالجنين يحتاج للتغذية. عليكِ أن تأكلي جيِّدًا من أجل صحَّته.

ألحَّت عليها، وضعت كمِّيَّةً أخرى في صحنها. شعرت «3» بالاختناق.

ـ شكرًا لكِ، لا أستطيع.

حدَّقت في الصحن ولم ترفع رأسها. شعرت ألَّا طاقة لها على تحريك أطرافها. فكَّرت أنَّها أمٌّ سيِّئة لا تستطيع حتى العناية بجنينها، وبسبب هذه الفكرة كادت تتسرَّب دموعها. حاولت وضع

لقمةٍ في فمها، لم تشعر إلَّا ببرودة الشوكة. العالم يلتهم نفسه. حزينة تفكِّر بالذهاب إلى طرف المدينة، والقفز عن صخرةٍ عالية. صار كلُّ شبرٍ في وطنها ساحة قتل. فكَّرت... عليها الموت، وإراحة نفسها والجنين.

خرجت إلى الشرفة لتستنشق الهواء، كان دافئًا ورطبًا. لم تتجاوز عتبة البيت منذ أسابيع. السماء صافية، والشوارع مكتظَّة. قريبًا سيزدادون واحدًا. وضعت اليد النحيلة على بطنها. زاغت عيناها وشعرت بالأرض تدور بها. خارت ركبتاها فسقطت وارتطم رأسها بحافَّة الشرفة. أحدث سقوطها دويًّا، ركضت إثره العمَّة لنجدتها. تفاجأت بها غائبة عن الوعي والدم يسيل من جبهتها. صرختْ وهرولتْ لطلب المساعدة. حضر الطبيب. حينها كانت «3» ترطن بكلماتٍ مبهمة، وتهذي من الألم. خرج صوتها متحشرجًا. شرَّعت عينيْها على الخوف. أطلقت صراخًا وحشيًّا. فقدت صوابها، وبدأت تضرب السرير بأطرافها. ركلت الطبيب وشتمته. كانت مرعوبة. تخيَّلت أنَّها تتعرَّض للاغتصاب. رأت الطبيب يمسك معصميْها، ويثبِّتهما على السرير، فاستعرّ جنونها مُطلقةً صرخاتٍ حادَّةً من أعماقها. استغاثت وبكت بلا جدوى.

رأت رؤوسًا كثيرةً لرجالٍ غرباء. العالم يدور بها. زائغة، تفكِّر في كيفيَّة الهرب من هذا الجحيم. منقوعة بالعرق. أحسَّت بجسدها باردًا مثل قطعة رخام. كأنَّها في طوفان أجساد تُصيبها بالرعب، تُحيط بها، تُحاصرها، فيتيبَّس جسدها، ويشحب وجهها. نظرت حولها. بحثت عن ابنتها الرضيعة، لا بدَّ من أنَّها نائمةٌ في المهد الصغير، ملتفَّةٌ بالبطَّانيَّات. ستُحضر لها زجاجة

الرضاعة. ستأخذها وتشمّ رائحتها. سترفعها في الهواء لترى عينيْها الواسعتيْن تحدِّقان إليها. ستكون لعبتها، ترفِّه عنها بالرقص والانثناء والاختفاء. ستحرِّك لسانها، وتفتح عينيْها مثل المهرِّجين لتضحكها. ستصفِّر وتصفِّق وتغنِّي لها أغنياتٍ قبل النوم. لكنَّها غائبة. لم تكن في بيتها ولا في القرية. لم تَرَ المهد ولا الرضيعة. لم تَرَ الأثاث البسيط الذي اختارته لبيتها. لم تَرَ لوحة الغروب على الحائط. لا نافذة تطلّ على حقول الذرة والزيتون. لا شيء سوى غرفةٍ خرساء، سيِّئة الأثاث، ووجوه غرباء يحاصرونها.

«لماذا؟»

تمتمت شفتان أنهكهما الصراخ وجفَّفهماالعطش.

«ستقتلين الجنين بجنونك».

ليتها لم تدخل في هذا الكابوس!

دوَّرت عينيْها في المكان. أدركت أين هي. كانت العمَّة تذرف الدموع الحارَّة. تجلس على طرف السرير تمسك بيد «3» المتعرِّقة. انفرجت شفتاها عن ابتسامة. للمرَّة الأولى تنتابها مشاعر مودَّةٍ تجاه امرأةٍ ليست أمّها، وجدت في عينيْها الكحيلتيْن ما افتقدته طوال الفترة الماضية. العمَّة كسرت الحواجز، وتمكَّنت من دخول عالمها. أحسَّت بثقل وجودها في حياة هذه المرأة. استقبلتها واعتنت بها دون مقابل. احتملت جنونها وحالتها النفسيَّة. شعرت بالخجل من تصرُّفاتها الحمقاء. ما ذنب المسكينة أنْ تتحمَّلها؟ تلك الحقيقة التي لمعت في رأسها جعلت عروقها

تشتعل، والضيق يتَّسع حتى شعرت بالاختناق. لم تجرؤ على النظر نحوها، فأدارت جسدها وحدَّقت في الجدار. تظاهرت بالنوم. تركها الطبيب منسحبًا مع العمَّة إلى الخارج. أخذت وضعيَّة الجنين. جنينٌ يخبِّئ في جوفه جنينًا. كان المشهد يعبِّر عن امرأةٍ متعبة من العالم والناس. حياتها الحزينة كمتشرِّدٍ في العراء، ينتظر الخلاص من السماء، الوجه الآخر للرصيف. لم تنتهِ الحرب، وإن انتهت، ستستمرّ في ضحاياها، وفي أبنائهم الذين سيذهبون إلى حربٍ جديدة.

فكَّرت «3»: ماذا سيفعل الأحياء بعد أنْ تنتهي المذبحة؟ ذهبت أفكارها بعيدًا، ولم تجد الجواب.

الفصل السادس

خطأ فادح

أنْ تُنجب امرأةٌ في الحرب معناه أن تترك باب الأمل مفتوحًا. وقت المخاض تأخذ الأشياء شكل الغياب، وهي منهكة، لم تخبِّئ ما يُعينها في الأزمات. لا تملك القوَّة لهذه اللحظات القاسية. صبرها نفد مبكرًا، وحدها الدموع كانت متوافرة. أفاقت «3» بعد منتصف الليل تصرخ من وجعٍ أسفل بطنها، امتدَّ سريعًا إلى منطقتَي الظهر والحوْض. سمعتْ العمَّة الصراخ فهُرعت لمساعدتها. ارتدت ملابسها، وجهَّزت ملابس المولود. بعد ربع ساعةٍ كانت سيَّارة أُجرةٍ تنتظر أسفل البيت. اقتعدت المقعد الخلفيّ مسندةً رأسها إلى زجاج النافذة. شعرت به ثقيلًا يكاد ينفجر. كان جسدها يتصبَّب عرقًا. امتلأ الجوّ برائحة الأنفاس والعرق. امتدَّت يد العمَّة بمناديل ورقيَّة. جفَّفت «3»

وجهها. مطّت ركبتيْها تلوِّح للسائق بيديْها ليسرع.

اشتعل الألم في مفاصلها، وشعرت بعطشٍ شديد. أرادت أن تطلب الماء، لكنَّها لم تكن قادرةً على التلفُّظ بكلمة، كان لسانها حطبةً جافَّة. «هل يستحقّ الجنين هذه المعاناة؟ ولادة مستكرهة. ليتني أجهضته! الأمر لا يستحقّ العناء»، قالت لنفسها. خمَّنت بأنَّ الألم أضعاف المرَّة السابقة. كأنَّ الطفلة تنتقم منها. بدايةٌ قاسية، صورةٌ مصغَّرة لما سيكون عليه الحال بعد الولادة.

كانت العمَّة تخفِّف عنها: «لم يبقَ الكثير. لحظات وستلدين».

دقائق ووصلت السيَّارة إلى باب المستشفى. في الاستقبال، دخلت إحدى الغرف. خلعت ملابسها وارتدت رداءً خاصًّا بالولادة. تمدَّدت فوق السرير. شعرت بالطلقات تتعاقب في اطِّراد. بعد ساعة، أدخلوها إلى غرفة التوليد. كان الوقت يمضي و«3» مستنزفة القوى، تصرخ بشدَّةٍ محاولةً دفع الجنين خارج جسدها. بدا أنَّ طفلتها لا تريد الخروج. تتشبَّث بالداخل على الرَّغم من إصرار الأمِّ والطبيب. دفعت الجنين بكلِّ ما لديها من قوَّة. توقَّف عن الدوران وبدأ رأسه بالانزلاق من بين قدميْها. عندما أحسَّت باقتراب النهاية، تضاعفت رغبتها بدفعه. ساعد الطبيب في إدارة كتفيْه ليسهِّل انزلاقه. بعد صرخةٍ مدوِّية انزلق. قطع الطبيب الحبل السرِّيّ فانفصل الجنين. عندما سمعت «3» بكاء طفلتها، أحسَّت بشعورٍ غامض. كان مزيجَ فرحٍ وحزن. الأمّ وطفلتها تبكيان. أدارت رأسها وأشارت بيدها رافضةً.

أحسَّت بالبرد يخترق جلدها. نظرت إلى طفلتها والممرِّضة تغسلها، ثم تلفّها بغطاءٍ رقيق. رأت في وجهها ملامح مغتصبها. عندئذٍ، تحوَّل ذلك المزيج من المشاعر إلى النقيض تمامًا. كأنَّ الطفلة لا تعني لها شيئًا، صارت لامبالية. المطر يهطل في الخارج، وبداخلها وهج الصحراء. لم يكن لديها ما يُقال. تعرف أنَّ الولادة نقطة انعطافٍ في حياتها. ما قبل ولادتها شيء، وما بعدها شيءٌ آخر. حاول الطبيب إقناعها برؤية الطفلة. حملها بين ذراعيْه ووقف إلى جانب السرير. تنهَّدت: هذه ليست ابنتي. أشاحت وجهها تُداري دموعها. لا تدري لِمَ تفعل ذلك؟ تعرف أنَّ الطفلة لا ذنب لها، لكنْ ثمَّة ما يمنعها. لمَّا همَّ الطبيب بإرجاع الطفلة إلى مكانها، طلبت منه أن يعود. لم تتفوَّه بعدها بكلمةٍ واحدة، أشارت إليه أنْ يضعها في حضنها. راقبت «3» الوجه البريء، عينان صغيرتان غريبتان، خدَّان ناعمان متورِّدان، أنفٌ هشٌّ ودقيق، فمٌ أحمر مثل الياقوت، أذنان مرسومتان ببراعة، استنشقت رائحتها، قرَّرت، سأسمِّيها: «9».

كانت الأمّ منهكة، بجانبها الطفلة تبحث عن شيءٍ تتشبَّث به، فأمسكت بإصبع أمِّها. لم تجد غير الدموع لتواري شعورها بالخجل. لقد منحتها الولادة حياةً ثانية، لكنَّها متحيِّرةٌ لا تعرف إنْ كانت خيرًا أمْ شرًّا. الطفلة جائعة تمصّ الحلمة بشراهة. انتبهت الأمّ إلى أن ثديْها جافٌّ لا يفرز الحليب. ضغطت عليه بلا نتيجة. الحليب بعيدٌ لا يصل. رفعت الطفلة شفتيْها وشرعت بالبكاء. كان صراخًا حادًّا. شعرت «3» بالخيبة. ثمَّة أحدٌ يرسم خيباتها بيديْه!

أصفر

مدينة yes، **الغرفة**

8 أيلول، XXAX

9:00 ليلًا

المرآة الماكرة، الكاذبة، المزيَّفة. أكره المرايا. أين أنا من هذه النسخة الرديئة؟ أين جسدي الشابّ المتوتِّر بالشهوات؟ صورتي مختلفة لا تشبهني. وجعٌ وحزنٌ يجريان في عروقي. مؤلمٌ ما رأيت. أبتعد وأعود. أبتعد أكثر! أين وجهي؟ أراني. ألوِّح إليَّ. أنا هنا. لست متيقِّنةً أنَّني لست في حلم. أمشي نحو المرآة. أسقط. أنهض. صلاةٌ وصوتُ مطر. على بُعْد خطوة جسدي، لا أعرف صاحبه. لا أعرفني.

ابتعدي. ابتعدي بسرعة. فقط لو أثبِّت قدميَّ إلى أرض

صلبة. كثبان رملٍ متحرِّكة! رمال العالم تحت قدميّ. الرياح تقصفني، وأعمدة الظلال تهبط على الغرفة. عينان شاحبتان تستصرخان فزعًا. وحدي هنا، ظلمات وراء ظلمات. أُفكِّر في المسافة: أقريبة أم بعيدة؟ هي، هي، هي. أرى أمِّي. سيِّدة الغموض! رأيت وجهها يتمايل وسط الضباب، يتحوَّل. إنمساخ هذا! مليئةٌ بالعطش. السماء غائمة. الهواء ثقيل. ذهني يلسع. بحثت عن الكلمات المناسبة، كانت متوارية وراء حجاب. ماتت، كأهل قريتها، الموت لاحقهم. لم أعد أعرف. كيف أرتديها الآن؟ لا شيء. لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يعبِّر عن رعب تلك اللحظات. كلّ مبالاة العالم لا تكفي امرأةً تجد نفسها في ذلك الموقف. كنت كائنًا إنسانيًّا مرهقًا، ففكرة أنْ أرتدي جسد غيري مخيفة. مترنِّحةٌ بإرادةٍ مسلوبةٍ بلا وعي. لم أكن أعلم إلى أين أمضي. لم أرَ من قبلُ العالم مرعبًا إلى هذه الدرجة. أدركتُ مذعورةً.. وخوفي من الشيخوخة تحوَّل إلى حقيقة.

فتحت عينيَّ من جديد. وقفت على قدميْن واهيتيْن مهزوزتيْن. على الرَّغم من أنِّي شعرت بثقل جسدي الأموميّ، إلَّا أنَّني مشيت في بطءٍ صوب المرآة. مشيت لأكتشف أنَّ الكابوس لم ينتهِ. ثابتٌ في مكانه يلبس وجه أمِّي. **هل سأعيش في جسدها بقيَّة حياتي؟** فتَّشت عن هاتفي المحمول. حاولت الاتِّصال بـ «6». هاتفها مغلق. ما العمل؟ ليس لديَّ أحد غيرها. هل أخرج إلى الشارع بهذا الجسد؟ أمشي وأشرب وأنام به. ماذا لو التقيت مصادفةً إحدى صديقات والدتي؟ تذكَّرت القفَّاز. خلعته، رميت به بعيدًا، ثم دخلت إلى السرير. غفوتُ باكية، نمتُ ساعة،

ساعتيْن، طوال النهار. عندما استيقظت، كان الوقت ليلًا. أضواء الشارع تتسرَّب من النافذة. القمر مكتمل. النجوم تبدو أكثر من المعتاد وأكبر حجمًا. شموسٌ كبيرة معلَّقة في سماء المدينة. وجعٌ في مفاصلي. وخزٌ في كامل جسدي. خُيِّل إليَّ أنِّي كنتُ في بئرٍ عميقة. شعرتُ بأنِّي أنبثق من رحم اللاشيء، وهذه لحظة ولادتي دون أمٍّ أو قابلة. . . ! كلغزٍ، كطلسمٍ، ما رأيته. تفقَّدت وجهي، رقبتي. شعرت بفرحٍ غامر حين وجدت نهديَّ، سرَّتي، خاصرتي، ومؤخِّرتي الممتلئة. زحفت نحو المرآة. وهناك، رأيتني، أنا «9»، بلحمي وعظمي. قفزتُ فرحة. درتُ حول نفسي غير مصدِّقة. ما القبح؟ ما الجمال؟ أين تجاعيد وجهي الكثيرة؟ بصقت في المرآة. لا أريد رؤية هذا الوجه القبيح ثانيةً. أكره العالم. هذه اللعبة الماكرة. ليت وجهي عجينةٌ أشكِّلها كما أريد، أُجدِّده، أبحث فيه عن المختلف. ماذا بوسعي أن أفعل أمام الأشياء المبهمة؟ ما زلت أتألَّم من القلق المفرط، التيه الوحشيّ، الأفكار المُلحَّة الكامنة في الرأس، المخاوف التي تنقر الصدر، القلب المتصدِّع، الجسد البائس، الحلم الذي لا يجيء. هل سينتهي هذا البؤس؟ كأنَّ ما رأيته كان ناتجًا عن حالة جنونٍ أو حمَّى. قد يكون مرضًا غرائبيًّا يُصيب الخائفات. هل ما عشته توهُّم، لم يحدث إلَّا في رأسي، وأتخيَّل أشياءَ لا وجود لها؟

أخضر

مدينة yes، البيت

12 تشرين الأوَّل، XXAX

11:00 ليلًا

بما أنَّني أكبر «6» بعدَّة سنوات، كانت تراني خبيرةً في الحياة، كثيرة التجارب والمغامرات. على نقيضها، فهي انطوائيَّة، غريبة التصرُّفات، صامتة أغلب الأحيان، وعندما تتحدَّث تقول جملًا غريبة. بلا سابق إنذار، اعتادت اقتحام شقَّتي بوشمها 9 6 3، بسرِّها الغامض، باحتفائها الوثنيّ وطوطمها المقدَّس، ثم نمضي الساعات في الحديث وطهو الطعام. مكثتُ تلك الليلة في شقَّتي اللعينة. أشعل الماريجوانا. سيجارة تلو الأخرى. المكان يلفُّه صمتٌ ثقيل. سوى نحيب السماء، لا صوت، كأنَّ الموت

جوّال. «yes» مدينة المتاهات. كرهت أماكني المفضَّلة. لا رغبة لي في الخروج. جالسةٌ على الأريكة بلا حراك. أُحدِّق في الجدار المقابل. أحدِّق في الفراغ. حدث ذلك بعد أسبوع عزلة. لم يأتِ أحدٌ لزيارتي. لم أخرج. لا صوت غير الأمطار التي تنهمر بغزارة. الأمطار المتواصلة كادت تُصيبني بالجنون. وحيدةٌ، وحدتي مقدَّسة نقيَّة. كأنَّني في معبدٍ بوذيّ، رعشةٌ خفيفة سَرَت في جسدي. رهبة جالت فيَّ. كان الوقت متأخِّرًا عندما سمعت طرْقًا خفيفًا على الباب. نهضت بسرعة. تعثَّرت بعبواتٍ فارغة. شعرت أنَّ الطريق إلى الباب طويلةٌ لا تنتهي.

كانت «6» ترتدي تنُّورةً قصيرة وحذاءً عاليًا. تعلك علكة نصفها في فمها، والنصف الآخر بين أصابعها. على وجهها ابتسامةٌ مستفزَّة لا تُغادرها. واقفةٌ عند الباب. قبل أن تخطو خطوةً واحدة، سمعت قرقرة بطنها. كان الصوت مثيرًا إلى حدِّ الجنون. المرَّة الأولى التي يُثيرني فيها صوت. توتَّرتُ أكثر حين رأيت الوشم 9 6 3 يتوهَّج بنارٍ مقدَّسة، يبدو جذَّابًا بغموض. ارتفعت حرارتي. سحبتها من يدها إلى الداخل. وبينما كانت تخطو التفتت إليَّ نصف التفاتة. نظرتها غريبة. تحرِّك جسدها بتوتُّرٍ متصاعد. في المطبخ، وقفت أحضِّر حساءً آسيويًّا وسلطات. بعد انتهاء العشاء، جلست على الأريكة. اقتربتُ منها، لكنَّها ابتعدت. وحيدتان، والأمطار تتكسَّر في الخارج. العالم يُصبح أكثر وحشة. مدَّت إليَّ يديْها. طلبتْ أنْ أتفحَّصهما جيِّدًا. لديها رُهابٌ من تغيُّر شكلها. رعبٌ مبكرٌ من الشيخوخة، تخاف أن تكبر، أن تصبح أكثر قبحًا. قالت لي إنَّها رأت نفسها

تموت وتتعفَّن في شقَّتها، دون أنْ يعلم بها أحد، مثل آلاف العجائز. منذ ذلك اليوم، تستيقظ في الخامسة صباحًا، لتنظر إلى نفسها في المرآة.

شعرت بسخونة جسدها. *هل أنتِ مريضة*؟ سحبتْ يدها خائفة. *لا، لا، أنا* بخير. كانت تكذب، عرفت ذلك من عينيْها الحمراويْن، ومن جلدها المتورِّم. من الواضح أنَّ الحمَّى تأكلها، تقشِّرها من الداخل. تركتها، ابتعدتُ عنها قليلًا. كانت تريد أن تقول شيئًا، إلَّا أنَّها لا تجد سبيلًا إلى التعبير. طلبتْ أن تسمع موسيقى كلاسيكيَّة وهي تحرِّك يدها في الهواء بطريقةٍ غريبة، فَتَحتْها، كأنَّها قبضتْ على حفنةٍ من الهواء، ثم رمتها نحوي. واقفةٌ وسط سجَّادةٍ فارسيَّةٍ مزركشة، اعترفت بعشقها للموسيقى. *أريد أنْ أقول، ألم أقل لكِ*؟ اندفعتْ تهمس. أمرتها: *قوليها مثل أيِّ شيء، لا تخافي*. أجابتني منفعلة: *أنا من عشَّاقها. أحبُّ سوناتات بيتهوفن على وجه التحديد، إنَّها ساحرة للروح، أسطوريَّة، خرافيَّة، أعجوبةٌ في جمالها*. كان حديثنا عن موسيقى بيتهوفن الأكثر تماسكًا بين كلِّ أحاديثنا طوال الشهور الماضية. الشهور التي لم أعرف فيها عن «6» غير القليل: طالبة بالثانويَّة، ليست الأولى في صفِّها، لكنْ علاماتها جيِّدة. تمضي وقتها بإجراء التجارب وقراءة كتب العلوم. تعيش مع أمِّها الوحيدة تحت سقفٍ واحد إلَّا أنَّهما غريبتان؛ لم تتحدَّثا مرَّةً واحدة حديثًا من القلب. وهي ممسكةٌ بيدي، شعرتُ أنَّها ترتجف. بصوتٍ غامض، تطغى عليه تأثيرات قوًى خفيَّة، اعترفتْ أنَّها تفهم نفسها أكثر، وتفهم ماذا تريد عندما تكون برفقتي. صداقتي ساعدتها

على الانفتاح على ذاتها والعالم. استطردت فجأةً وهي تنظر في عينيَّ المتعبتيْن: **يريدني أن أموت. يريد أن يتخلَّص منِّي.** اتَّسعت عيناها، وقفتْ، مشتْ في بطءٍ وحذر كأنَّها على حبل سيرك. مسحت بنظرها أثاث الغرفة. أكملت مشيها صوب النافذة. لحقتُ بها. وضعَتْ كفَّها على الزجاج ونظرت إلى الخارج. همستْ بصوتٍ مبحوحٍ وحزين. نحن مجرَّد دمى. غرابةٌ في غرابة. جنونٌ في جنون. صوتها جرحٌ غائرٌ في القلب. *الحقيقة أنَّنا لا شيء. أوهام.* لم أفهم. لا أريد أنْ أفهم. كلامها الحادّ شرَّش مخاوفَ في رأسي، وأفكارًا سوداء. قلت لها غاضبة إنَّني لا أفهم شيئًا، تبدو لي ثملة، لا تدري ما تهذي به. أوَّل مرَّة أسمع كلماتٍ مبهمة، كأنَّها مأخوذةٌ من كتاب شعرٍ قديم، تخرج من إحدى صديقاتي. حاولت السيطرة على أعصابي. أُنهي كلامي بسرعة، لأُحدِّق إليها منتظرةً أن تُكمل كلامها وتوضح ما استعصى. إلَّا أنَّها سيَّجت نفسها بالصمت. تسلَّحت باللامنطق. مكثتْ تنظر إليَّ باشمئزاز. إلى شعري. إلى عنقي. إلى نهديَّ. إلى ساقيَّ.

ما الذي أريده من امرأةٍ فقدت عقلها، تهذي بما لا يُفهم، تصمت أكثر ممَّا تتكلَّم؟ يا إلٰهي، كم أعاني تحت ثقل الكلمات الملغَّزة! *لقد أحسن خلقك، أراد لجمالكِ أن يكون متوهِّجًا لا ذعًا فكان. أرادكِ مجنونةً مجبولةً على حبِّ صخب الحياة فكنتِ. كنتِ الفتنة الكاملة. سينتهي منك، ويجرِّب غيرك. سيستلذُّ وهو يرى التغضُّنات في وجهك، جلدك الشمعيّ المترهِّل، رجفة يدكِ، وجع مفاصلكِ، وجع ظهركِ، وجعكِ كلّه. وسيرفع رايات نصره بعد أن تتحوَّلي إلى رماد.* ترى ملامح حيرتي، تحاول أن توضح،

فتزيد الأمر سوءًا. فقدت صبري. منذ سنين وأنا أبحث عن الهدوء، عن التوازن، لتأتي هذه الفتاة بذهنٍ مسموم بالهلوسات. طفح الكيل. صرخت في وجهها. *اسمعي ليس لديَّ وقت لحلِّ ألغازك*. أخافني المسكوت عنه، ذلك الذي لم تصرِّح به. شعرت بألمٍ وحشيٍّ، لأنَّها قالت الحقيقة. في داخلي، تفجَّرت براكين وبحار، وتحرَّكت الصخرة التي أقف عليها، صخرة الهاوية. أخذتْ تتفحَّصني. *ليس لنا وجود في الواقع، نحن مجرَّد شخصيَّاتٍ من صنع خياله*. ارتبكتُ، وخنجرٌ طويلٌ لمع مكان الوحمة. استندت إلى كرسيٍّ قريب. الحقيقة التي كنتُ أخافها، لطالما شعرت بخيوطٍ تُحرِّكني. بعينٍ واسعة تتلصَّص على حياتي. بمصائر وأقدارٍ ترسم لي حياةً لا خيار لي فيها. خارجي السيِّد. قوَّة ما، استعلائيَّة، تسلُّطيَّة، تتحكَّم بي. هل العالم كلّه زائف؟

يكفي. لقد أصبح كلامك لا يُطاق.

ما زلتِ لا تصدِّقين. أليس كذلك؟

أمسكت بها من شعرها محاوِلةً اقتلاعه. *اصمتي. شيطانةٌ كاذبة، لعينة، ابنة حرام*. تألَّمت، وصرخت صرخةً أحدثت شرخًا في سقف العالم. تراجعتُ. ندمتُ. جلستُ على الأرض منهارةً مهزومة. *اشرحي لي كيف لنا أن نتحدَّث عنه إن كنَّا شخصيَّات في رأسه؟ سألتها. الآن وقت نومه، ولن يصحو حتى الصباح. إنَّنا نتحرَّك في حلمه، وعندما يصحو لن يتذكَّر شيئًا. تعالي*. أخذتْ يدي، ومشت بي إلى غرفتي حيث طاولة المكتب. سحبتْ من الدُّرْج قلمًا وورقة. طلبتْ أن أكتب عنواني، تاريخ اليوم، في

أيِّ قرنٍ أعيش، في أيِّ قارَّةٍ أسكن. نظرتُ إلى بياض الورقة ببلاهة. لا زمان. لا مكان. لا أعرف شيئًا. *هل فهمتِ؟ لا يمكن لإنسانٍ طبيعيّ ألَّا يعرف في أيِّ بلدٍ أو زمنٍ يعيش. هذا أمر بديهيّ. أرادكِ أن تكوني عائمة في الهواء، خارج أيّ زمانٍ أو مكان.* كنتِ مذهولة. كيف يفعل بي هكذا مَن لا أعرف ماهيَّته. أيحقّ له أن يجعلني لعبةً بين يديْه؟ كنت أراه مثل نجمٍ بعيد ولا أعرف كنهه. لم أفهمه. لم أُدرك حكمته أو تجلِّياته في عالمي..

هل صدَّقتِ؟

أنتِ حمقاء، ماذا يعني لكِ إن صدَّقتِ أمْ لا؟

تعرفين الحقيقة.

وما الذي سيتغيَّر؟ أين المفرّ إنْ كان مالكَ أمري؟

كانت تدور حول الطاولة، تنتظر انهياري. أخذتْ تشمّ رائحة خوفي والتيه. مفترسةً نظرت إليَّ، تبحث عن مكامن ضعفي. ماذا تريد؟ في تلك اللحظة، لم أكن أعرف ما يجب عليَّ فعله. انهرت دفعةً واحدة. مشيت نحو الحمَّام وأنا أمسح دموعي، أبكي مفجوعةً، وضعت رأسي تحت الماء البارد. استطعت رؤية طفلةٍ تُشبهني، تركض بين رجالٍ يجلدونها، يلعنونها، ويبصقون في وجهها. لحقت بي. *انظري إلى نفسك، مثيرةٌ للشفقة. أنتِ جبانة، تخافين من حقيقتك.* **لماذا أنا هنا؟ الرعب الحقيقيّ أن أكون هنا.** حاولتُ التظاهر بأنّي متماسكة. مسحتُ وجهي بالمنشفة ورجعت إلى الصالون. أشعلتُ سيجارة ونظرتُ عبر النافذة. نظرتُ للماضي، وللفتاة التي كنت، فهزَّني ما رأيت.

كانت حياتي بائسةً على نحوٍ فظيع. حاولتُ التماسك غير أنَّني أخذت بالنشيج. اهتزَّ جسدي، قبل أن يتحوَّل النشيج إلى نُباحٍ حيوانيٍّ. لا أحد غيرنا والغرفة. المطر في الخارج حاجزٌ بيننا وبين الليل. بعيدتان عن الناس، عن العالم، عن كلِّ شيء. وأخذتْ بالضحك. كنت مع فتاةٍ مُصابةٍ بالجنون، تضحك من كائناتٍ هزليَّة لا يراها أحد، وتتقافز مع شياطين صغيرة. تضحك، وتضحك، وتضحك.. أنا مذهولة، يقشعرّ جلدي من الخوف، أحسّ أنَّ الجنون يعانقني، يأخذني إليه عاشقةً أبديَّة، موقظًا قوى نائمة، ومستجلبًا أفكارًا شرِّيرة. لحظةُ انهيار. انطفاءٌ لليقظة والوعي. إنَّها الحقيقة المؤلمة. انفتحتْ ولم أستطع أن أُغلق نفسي، والعيْن المغمضة في جسدي استيقظت.

أزرق

مدينة yes، البيت

12 تشرين الأوَّل، XXAX

11:40 ليلًا

6..6.. ستَّة

ناديْتُها لكنَّها لم تسمعني. لا وجود لها. ما عادت من الأحياء. تلاشت. تبخَّرت في لحظات، لتبرهن على هشاشة العالم. بعد ذلك الحوار الغاضب، المجنون، انسحبتُ من الصالة، ودخلت المطبخ لأشرب كوب ماء. عندما عدت وجدتها ترسم في كرَّاستها. كانت منهمكةً ترسم عيونًا كبيرة. بدتْ لي من فرط تركيزها منغمسةً في عالمٍ آخر. تمسك قلم الرصاص بيدٍ مرتعشة، وجهها أحمر، وأنفاسُها متسارعة. كانت ترسم بطريقةٍ

مجنونة لم أرَ مثلها في حياتي. توقَّفتُ عن المشي. تصلَّبت. ارتعدت لاإراديًّا، وبحلقت فيها بعينيْن مذهولتيْن. سَرَتْ قشعريرةٌ في جسدي. «6» تأخذ رسوماتها على محمل الجدّ. لديها رغبةٌ محمومة للعيون. كائنٌ متوهِّجٌ، هذيانيٌّ، بفوران دمه، وتفجُّر مشاعره، بأصابعه المتعرِّقة، يرسم بافتتانٍ عيونًا شيطانيَّة. اقتربتُ وأنا أشعر بهاجسٍ غامض، يتفتَّق داخلي خليطُ خوفٍ ورغبة. لم يقطعها عن الرسم أيُّ شيء، كانت غائبة في عالمٍ بعيدٍ طيفيّ سحريٍّ. مشهدٌ مأتميٌّ، متلوِّنٌ بالرعب، قلِقٌ من التلاشي. مستسلمةٌ لقَدَرٍ تراجيديّ، وبشغفٍ رومانسيّ تتشرَّب التصوُّرات الكئيبة والخيالات والأحلام والهذيانات، مثلما تتشرَّب الأرض أجساد الموتى.

بقيتُ صامتةً طوال عشر دقائق، لم أتلفَّظ بكلمةٍ واحدة. لم أملك الجرأة. لكنِّي لم أطق البقاء جامدةً كتمثال. معذرة، *هل أنتِ بخير؟* لم تُجب. فقلت لها بإصرار: *«6، هل أنتِ بخير؟ أرجوكِ»*. لا شيء. كلماتي لم تصل إليها. أسرعتُ نحوها. نفضتها من كتفيْها. صرختُ في وجهها، وصفعتُها أكثر من مرَّة. لم تبدر منها أيَّة حركة. لم تنطق بحرفٍ واحد. كانت عيناها تتفرَّسان العالم في شرود. بدت لي أنَّها فقدت روحها. كان خاويًا وباردًا جسدها. وقفتُ أمام النافذة. أشعلت سيجارة. نظرت إلى جمرتها المرتعشة في الظلام. قلت دون أن ألتفت خلفي: *«اسمعي. أُريد أن أقول لكِ شيئًا. أعرف أنَّني سخيفةٌ وجبانة. أعرف أنَّ الشجاعة ليست لديَّ لمواجهة حقيقتي. هل أنا مجرَّد شخصيَّةٍ في نصٍّ روائيٍّ؟ تقبُّل الفكرة ليس سهلًا. تدرين،*

طالما كنت أشعر أنّي لعبةٌ أو أداةٌ عند الآخرين. وأبعد من ذلك، ثمَّة قوى أشعر بها تتحكَّم بي، تُخضع حياتي لمعاييرها. تُراقبني عيونٌ كبيرة مثل تلك التي ترسمينها. قد أبدو لكِ مجنونة، ماذا بوسعي أن أفعل؟ كلّ هذه الأشياء الغريبة التي تحدث. كلماتك كانت المسمار الأخير في تابوتي. لمستِ حقيقتي. كلماتكِ قاسية. لي مكانٌ في هذا العالم، مهما كانت طبيعته. أنا متيقِّنة. هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟ لا. أشعر دومًا أنّي هناك ولست هنا، لكنّي ما زلت واقفةً على قدميّ. كلّ شيءٍ من حولي ينهار، وحبل الندم يلتفُّ حول عنقي. الندم الوهميّ على ذنوبٍ لم أرتكبها. دبابيس صغيرة تثقب روحي. يُتعبني تكرار الأيَّام وما تحمله من أسئلة. عصافير في الرأس. أُريد أن أستشعر لحظةَ سكينةٍ واحدة، اللعنة عليّ».

طريقتي في الحديث أخافتني. هذا التكرار المجنون للعبارات. هذا الإيقاع المحموم في قول الأشياء.

«ماذا تتوقَّعين؟ أنا أعيش وحيدة. لا أتكلَّم إلَّا مع الغرباء. منذ سنواتٍ قطعت علاقتي بالبشر. أنتِ. كنتِ مختلفة. أحببتك ووثقت بكِ. أعترف أنَّكِ نقطة ضعفي. هذا لا يعني استغلالك لي. أريد أن أطلب منك أمرًا. لا تتحدَّثي في ذلك الموضوع مرَّةً أخرى. أرجوكِ. لنعش دون تلك الأفكار. أنا حقيقيَّة بلحم ودم، لست شخصيَّةً في كتاب. منظر الغروب يجرحني. أنتشي بالمطر الخفيف. أعشق التفاصيل الصغيرة. أنا حقيقيَّة. يوم أمسكتِ يدي شعرتُ بالحياة تمرّ من قلبي. أوَّل مرَّةٍ أشعر فيها أنَّني لست وحيدة أو ضائعة. هذا ما كنت أحتاجه. يد صديقةٍ تنتشلني من

عمق الخراب. ألسنا صديقتيْن؟ لا أفهمك. فقدت أمِّي وأنا الآن فقيرةٌ برائحتها، لا أملك غير قبلاتٍ قليلة، وجوعٍ كبير للحديث معها، وذكريات: أصابع مرتعشةٍ تبحث عن حبَّة الدواء بجانب السرير، وعناء المشي في الصالون البارد، ونظراتٌ شاردةٌ من عينيْن غائمتيْن بالدموع. بكيت يوم وفاتها من شدَّة العطش والوحدة، رأيت العالم يهوي من السفح. بعدها تعمّق ضياعي».
صمت مطبق، كأنِّي وحيدةٌ في المكان، لا صدى لصوتي. واصلت ثرثرتي محاولة تغيير سياق الكلام:

«سأروي لكِ حكاية. لا أدري ما علاقتها بما نحن فيه. أرغب فقط أن أقصَّها عليكِ. ذات مرَّة، حين كان طفلٌ قرويٌّ يلعب في الحقل المجاور لبيته، شاهد فراشةً بيضاء صغيرة الحجم. كانت فراشةً عاديَّة مثل تلك الفراشات التي تنتشر في الريف. ركض خلفها ساعاتٍ محاولاً اصطيادها. أخيرًا حين استطاع الإمساك بها، تأمَّلها طويلاً. شعر بجناحيْها الرقيقيْن يخفقان بتوتُّر. التصق دقيق الجناحيْن بأصابعه. بعد دقائق، سكنت الفراشة في يده، فأدرك أنّها ماتت. عاد الطفل إلى بيته حزيناً. سأل والدته: هل يجوز قتل الفراشات؟ فأجابته: بالتأكيد لا، إنَّ لديْها روحًا. أحسَّ بالذنب ينهش داخله. لم يكن يعرف ما معنى ذنب، أو ضمير، أو أخلاق، أو رحمة، إلَّا أنَّه كان قادرًا على الإحساس بها. بمرور الأيَّام، ساءت حالته الصحِّيَّة. عانى من الحمَّى، والأرق، والكوابيس. حاول الأطبَّاء تشخيص مرضه. جرَّبوا كلّ الأدوية والحلول الممكنة، إلَّا أنَّ كلّ محاولاتهم باءت بالفشل. ظلَّ الطفل يتعذَّب بالمرض حتى مات.

في الجنازة، حطَّت فراشات كبيرة بأجنحتها الملوَّنة على التابوت».

عندما أدرت رأسي والتفتُّ، لم أجدها. كانت قد اختفت. تلاشت حقيقةً لا مجازًا. رأيت فقط كرَّاسة الرسم وقلم الرصاص، وعين تتفجَّر بالأحمر. ناديتُ عليها. بحثت عنها في بقيَّة الغرف. لا أثر لها. تنُّورتها القصيرة تلتصق بالجدار كوحمة، وفردة حذاءٍ واحدة تفتح فمها كوحش. هربت.. خرجت والرياح تنهش جسدي، هل ابتلعتها واحدةٌ من تلك العيون الكبيرة التي رسمتها! تذكَّرت عبارتها: **يريدني أن أموت. يريد أن يتخلَّص منِّي.**

قلت: غامض يجذبني. ركضت في الطرقات غاضبة، الغضب إرثي، ماضيّ غاضب. كنتُ على حافَّة الجنون. شعرت أنَّني سأموت. «الأشياء ضبابيَّة»، لا أدري أهو الشكّ أم الدموع! استلقيت على رمل الشاطئ أُفكِّر في سخرية الأقدار. نظرت إلى السماء التي بدت طازجة، وفكَّرت حتى غفوت. تسلَّلتْ إلى نفسي موسيقى يعزفها أُناسٌ من الأدغال. تخيَّلت أنَّني ألعب مع أطفالٍ حفاة، يلاحقون نمورًا بين أشجارٍ كثيفة، ويطردون قردةً هنديَّة من أسواق الحرير والعطور.

استيقظتُ مغمورةً برائحة الماء، وسخونة الرمل، والرغوة البيضاء. قرص الشمس قريبٌ من رأسي. شمس الواحات جفَّفت جلدي. الحرّ تجلَّى مثل إلٰهٍ مهيب، ليذكِّرني بسطوة المكان، وفوقي سقفٌ سائلٌ من الأحلام. كان البحر هائجًا، الموج

يضرب الصخور بشراسة، جلدي يرشح عرقًا ثقيلًا. كأنَّه وحشٌ سينقضّ عليّ ويبتلعني. نهضت، وهربت بعيدًا، تخيَّلته يلاحقني، يطوِّق عنقي بمياهه الباردة وزبده. هربت وطاردني. سمعت هديره يرتفع عاليًا، ليهبط بقوَّةٍ ويجلد ظهري. هدير الموت، رائحته، شكله، لحظاته الأولى. كي لا أراه ولا أسمعه، انهمكت في الركض.

بنفسجيّ

مدينة yes، حلم «9»

13 تشرين الأوَّل، XXAX

3:00 صباحًا

نهضت من السرير بعد نومٍ ثقيل. دنوت من النافذة. تأمَّلت المنظر الماثل أمامي: ناطحاتٌ سحاب، وبحرٌ شديد القتامة. yes مدينةٌ صاخبة. الدخان يتصاعد من المصانع. غربانٌ كثيرة. أوساخٌ متكدِّسة بجانب الطرقات. الضجيج. أُناسٌ يركضون في كلِّ الاتِّجاهات. ارتديت بنطلون جينز وبلوزة عاديَّة، وحذاءً رياضيًّا. لم أقف أمام المرآة، خفت من رؤية شيءٍ لا أرغبه. نزلت الدرج بسرعة حتى وجدت نفسي في شارعٍ مزدحم بالسيَّارات. رأيت المنظر ذاته: متاجر ضخمة، مطاعم وجباتٍ

سريعة، شركاتٍ مشهورة، كاميراتٍ فوق إشارات المرور، أجهزة مراقبة، رايات الحزب الحاكم، شعاراتٍ سياسيَّة، تمثال الزعيم ببزَّته العسكريَّة، شاشات عرض كبيرة، تبثُّ ألعابًا واقعيَّة، دمويَّة، لأُناس يقتلون بعضهم. مدينةٌ أشعر فيها أنِّي حيوانٌ مدجَّنٌ في خيمة سيرك، سيِّدٌ واحدٌ فوق الحلبة، والجمهور مهمَلٌ في العتمة.

مشيت كأنَّني منوَّمة مغناطيسيًّا، لا أدري إلى أين! بدت شوارع yes غريبة، ضبابٌ قذر، الناس أكثر تجهُّمًا، يعبرون كالأشباح، يتلاشون بسرعة. مدينةٌ قاتمة، رماد في كلِّ مكان، الأزقَّة طبقات نفاياتٍ وغائط بشريّ. مدينة فقَّاسة للصراعات، بين الحاكم والمحكوم، بين الرجل وزوجته، بين الوالديْن وأولادهم، بين الكلاب والقطط. البعوض مسعور، يغزو البشر بوحشيَّة. كانت حالةً تُشبه فقدان الإدراك، أو الحلم بالمشي، أو المشي في النوم. كنت كما لو أنَّني تناولت عقاقير مهدِّئة، أو تعاطيت المخدّرات. أهرب إلى ذاتي. أهرب إلى اللاشيء. الأماكن ذاتها، الأشياء ذاتها، الخدمات ذاتها. رأيت حمامةً تدور حول نفسها، دائخة، تقوم بحركاتٍ هستيريَّة. الحيوانات في مدينة yes تُعاني من لوثة الجنون. تلَّة المشاهير التي لا يصل إليها غيرهم غارقةٌ في الكحول والكوكايين. الجنَّة في الأعلى، نراها من بعيد، ولا نجرؤ على الاقتراب منها.

دخلت مطعمًا يبيع الوجبات النباتيَّة، أكلتُ في دقيقتيْن، وجبة فرديَّة سريعة التحضير. المهمّ الشعور بالشبع، لا بلذَّة

الطعام. لا وقت أضيِّعه في الجلوس إلى مائدة. ألهث وراء الزمن دون جدوى. أَجِدُني دائمًا متأخِّرة. الحياة زئبقيَّة تتفلَّت من بين أصابعي. شربت كوب قهوة في مقهى مقابل البحر، ثم مررت بالسوق الشعبيّ. ميدانٌ كبيرٌ يعجُّ بباعة الخضار والفواكه، والأدوات المستعملة، والتحف القديمة. يتحوَّل في ساعات الليل لساحة رقص، تنتهي بحفلة مجونٍ على ضوء الإنارة الخافتة. المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان، في مدينةٍ تكرهني بسبب لون بشرتي. أحبّ مراقبة المراهقين، والعشَّاق المتعانقين، والفنَّانين المتشرِّدين، والبوهيميِّين المنتشين، والرجال الملوَّنين القادمين من الأحياء الفقيرة، والمتمرِّدين من الأعراق المنبوذة بأوشامهم، وجنونهم، متحرِّرين من أثقال العالم. يتكدَّس المهاجرون بالمئات، يجلسون على قارعة الطرقات، يبيعون البضائع، يشربون، يتبادلون الحكايات عن الفاقة، وكيفيَّة عبور الحدود في شاحنات الخنازير. ملاحقات الشرطة للمهاجرين غير الشرعيِّين، وقلَّة الأجور. يستعيدون الشهور الأولى، الاختباء في المزارع والمقابر، النوم في أنفاق المترو، الماء الملوَّث، الخبز اليابس. محاولات الحفاظ على تقاليدهم، في حين يأملون باندماج أبنائهم ونيل بعض الحقوق.

أتوه تحت جلدي، أشعر أنِّي أركض في غاباتٍ كثيفة، وطرقاتٍ ترابيَّةٍ لا حصر لها، أندمج مع الطبيعة الصامتة، هاربة من معارك جسدي الخارجيَّة. لون بشرتي يضعني تحت تهديدٍ متواصل، خوف متراكم من العصابات العنصريَّة، أعيش في غيتو، هامشيَّة، لا يرانِّي أحدٌ غير الهامشيِّين أمثالي. بعد

خروجي من السوق، واجهت حشد سيَّاراتٍ مشيت خلاله، إلى أنْ وصلت زاوية شارعٍ حيث موقف باصات. شعرت بالبرد ورغبت بالمطر. السماء كئيبة، كنت مستاءة. انتظرت خمس دقائق، عشرًا. الباص تأخَّر عن موعده المحدَّد. ما فعلت غير النظر إلى السماء والتفكير. غيمةٌ سوداءُ تعلو المدينة تحجب ضوء الشمس. لا أدري كيف يعيش الناس وسط هذا التلوُّث. لا هواء نقيّ، لا ضوء. يغطُّون وجوههم طوال الوقت بمناديل ورقيَّةٍ أو كمامات. لا يخرجون إلَّا في نهاية الأسبوع، لا يجلسون في الحدائق، لا يعرفون غير العمل الذي يمتدّ طوال النهار. العمل وحشٌ أسطوريٌّ يبتلع حياتهم. إنْ خرجوا، لا يلتفتون حولهم. يغرسون عيونهم في شاشات أجهزتهم. الخوف. الاغتراب عن الواقع. يقفون في طوابير أمام الدوائر الحكوميَّة. الخروج ليلًا مغامرة كبيرة، يطوف السكارى ومدمنو المخدّرات في الشوارع المُظلمة، يُلاحقون الفتيات، شاتمين كلّ شخصٍ يقابلونه. شجارات عنيفة على أبواب الملاهي الليليَّة، صراخ نساءٍ يرتفع من أماكن مهجورة، صفَّارات سيَّارات الشرطة والإسعاف، الزحام، موسيقى صاخبة، تأوُّهات بنات الليل، بكاء، تتحوَّل المدينة إلى جوقة أصوات. وأنا اعتدت التجوال، المشي آليَّة تفريغ، من دونها أنفجر. أمشي كيلومترات طويلة. أُفكِّر، أتذكَّر، أغنِّي، ألعن، أرتجل حوارات فرديَّة، أتخيَّل شخصيَّات، أخترع حكايات / متاهات. كلّ ما قاله عمدة المدينة، لم يخرج عن كونه شعارات جوفاء: «مدينة yes خالية من التلوُّث»، «مدينة yes نظيفة وخضراء»، «مدينة yes تحترم كبار

السنّ والأطفال»، «مدينة المساواة». كأنَّ كلماته مفاتيح عالمٍ يوتوبيٍّ مغسولٍ بالضوء: عالم الحرِّيَّة والإخاء. بعد فوزه في الانتخابات، تنصَّل من وعوده، وتبرَّأ من مشاريعه النهضويَّة، تسانده الصحافة مباركةً أعماله، مهما بدت سخيفةً وعديمة الجدوى.

سمعت فجأةً صوت رنينٍ قادم من كابينة هاتفٍ عموميّ. رنينه الرتيب دعاني إليه بسحرٍ لا يُقاوم. حاولت تجاهله، لكنَّه واصل الرنين. كنت أحتاج إليه. رأسي فوضى أفكار. الرنين دعوة حماية. وجدتني دون وعي أمشي باتِّجاهه. لماذا استسلمت؟ جذبني بقوَّةٍ غامضة، كنت مستعدَّة لملاحقته حتى نهاية الأرض. خطواتي بطيئة، متردِّدة، خائفة من مجهولٍ يبدو قاسيًا. عندما رفعت سمَّاعة الهاتف، وقرَّبتها من أذني، سمعت صوته. كان هو، بصوته العميق، الهذيانيّ، المبحوح من كثرة التدخين. ارتكزت على حائط الكابينة الزجاجيّ. خانتني قواي. رجلاي ارتجفتا. كدت أسقط. حلقي جفَّ. جسدي التهمته الحرارة. أن يتَّصل بي أمرٌ لا يمكن تصوُّره. أمرني بالحرف الواحد. *اقتلي، واحرقي الكتب. لقد حان الوقت. أنتِ المخلِّصة. رسولتي إلى البشريَّة.* أُغلق الهاتف. ريحٌ عاتية عصفت بي. الجوّ عزفَ لحنًا جنائزيًّا. البرد.. فتحتُ عينيَّ عن آخرهما. تنهَّدت. أخذت نَفَسًا عميقًا. حدَّقت في السقف ورحت أُفكِّر. الأحلام على هذه الشاكلة، ليست أقلّ من تنبُّؤاتٍ مستقبليَّة. اتَّكأت على حافَّة السرير، ونظرت إلى الخارج عبر النافذة. ضغطتُ على صدغيَّ، وتذكَّرت التفاصيل. رحتُ أُفكِّر

بما جرى في الأيَّام الماضية. يحاصرني ما لا أفهمه. رفعت يدي في الهواء، نظرت إليها. كانت ترتعش. لا أشعر بها، كأنَّها ليست لي. تسلّل من عالمه إلى عالمي بعد أنْ هدم الحدود بين الواقع والخيال. وحده الحلم قادرٌ على التقريب بين العوالم. لماذا يريدني أن أقتل؟ لماذا يُريد إحراق الكتب؟ لم يكن هناك مكتبةٌ واحدة في البلاد، بعد أن أصدرت الحكومة أمرًا بحرق المكتبات. أصبح اقتناء الكتاب جريمةً يعاقب عليها القانون. كانت الشرطة تفتّش البيوت والمقاهي بحثًا عن الكتب، تحرقها، وتنصب لأصحابها المشانق.

الناس في مدينة yes يحبُّون رؤية الأشياء تحترق وتتحوَّل إلى رماد. تثيرهم رؤية النار تصيِّر ألوان الأغلفة إلى الأسود. أحياء كاملة التهمتها الحرائق بتهمة الكفر. المجنون مَن يخالف الحكومة، ويقوم بأشياءَ استثنائيَّة كأنْ يفكِّر، يتأمَّل، يحبّ. أن يمشي وحيدًا في حديقة، أو أنْ يحمل وردة، أو أنْ يراقب الطيور في السماء، فالعيون المنتشرة في كلِّ مكان ترصدهم. yes مدينة لا تنام، شمسها باردة، سماؤها رماديَّة، أغلى مدن العالم، أكثرها شرًّا، أشدُّها قسوة. مدينة الأغنياء جدًّا والفقراء جدًّا، أقلِّيَّةٌ صغيرةٌ من ذوي الامتيازات تسيطر على الاقتصاد والتعليم والإعلام وأماكن الترفيه، تُكرِّس نفسها لاستغلال العمَّال، بينما تعيش الأغلبيَّة الساحقة في فقرٍ مدقع. حدثت هذه التحوُّلات بعد انقلابٍ عسكريٍّ، حين سيطر الجيش على مجلس النوَّاب، والتلفزيون الرسميّ، والإذاعة التي أعلنوا فيها بدء نظام جديد، اكتشف الناس سريعًا، خاصَّةً النساء، أنَّه أسوأ الأنظمة الَّتي مرَّت

على بلدهم، حيث الاستبداد، والقمع السياسيّ، والتراجع عن القيم التحرُّريَّة. اقتصر دور النساء على الأعمال البيتيَّة والإنجاب وإمتاع الرجال، مؤدِّياتٍ المهمَّة المقدَّسة في الحفاظ على الوجود. اشتهرت المدينة بكثرة أحياء الليل التي تغصُّ بالحانات وبيوت المواعيد والمتاجر الإيروتيكيَّة والكابريهات. تنتشر في شوارعها إعلاناتٌ دعائيَّة مُضيئة وكاميراتٌ بتقنيَّاتٍ متطوِّرة ومجسَّاتٍ حديثة، فيبدو للزائر أنَّه في علبة ليلٍ متاهيَّة، ممتلئة بالأبراج المتراصَّة والشوارع الضيِّقة، باستثناء بيوت تقليديَّة، بسقوفها القرميد، لم يتبقَّ منها إلَّا القليل، وعشوائيَّات الصفيح، كلّها مراقبة من أُناسٍ يجلسون خلف شاشاتهم. مدينة الصرعات الجديدة والملذَّات الجسديَّة. اختفت الكتب والمسارح. موسيقى صاخبة، مخيفة، تجذب إليها ملايين الشباب. شيئًا فشيئًا أحدثت المدينة ثورةً في التحرُّر الجنسيّ وتعاطي المخدّرات والموادِّ المهلوسة، مؤسِّسةً لمجتمع الرفاه المستقبليّ: فردوس السعادة المفقود، ليبدأ تاريخٌ جديدٌ يقترب من الكمال، حصيلة الحكمة البشريَّة بعد قرونٍ من المعاناة، حيث المتعة جوهر الحياة الحقيقيَّة.

ظلَّ الحلم يتكرَّر ليُنذرني بقرب وقوع شيءٍ ما، نهوض فتأمُّل فخروج، ثم ذلك الاتِّصال الغريب. كنت أترقَّب حضوره. وإنْ غاب يعتريني الذعر، وتأكلني الأسئلة. حلمٌ يراودني، يعود في كلِّ مرَّةٍ أكثر وضوحًا. كيف أفكُّ رموز الحلم؟ ما الذي ينبغي فهمه من المتّصل؟ لمَ اختارني لتنفيذ مهمَّته الغامضة؟ ما الحكمة؟ انتفض كلّ شريانٍ في جسدي، وشعرت بدمي يكاد يتفجَّر، فأخذت أرتجف مرتعبةً. ركضت لأفرِّغ طاقتي، أهدِّئ

جنون رأسي. غاب صوت الذي أخافه. تلاشى في رأسي، ليتشكَّل أمامي، على هيئة شيءٍ لا أجهله. كانت صورة أبي الميِّتة التي ألقمتها للقمامة قبل سنوات. سحبتني إلى داخلها على شكل دوَّاماتٍ من الضوء والصوت!

الفصل السابع

المايسترو أَلِف

وُلِد ألِف في رأس السنة. تطلَّقت أمُّه بعد ولادته بعشرة أيَّام، فرحل معها إلى منزل الزوج الجديد. بعد عاميْن، أعادته إلى أبيه، وباتت تزوره في فتراتٍ متقطِّعة. لم يشعر ناحيتها بأيَّة مشاعر، كانت التجسيدَ لفكرة العدم. كان والده مؤلِّفًا موسيقيًّا مغمورًا وعازف بيانو في الحانات الرخيصة. علَّمه كلّ شيءٍ عن الموسيقى. أجبره على التدرُّب ساعاتٍ طويلة. دأبَ إيقاظه بعد منتصف الليل ليتمرَّن حتى الصباح، ينطلق صوته عاليًا: «العالم بانتظارك، اجتهد ولن يبخل عليك، الحياة معركة مستمرَّة، لا تتوقَّف، قاتل، المكافأة أنْ ترى الفردوس حولك، ومضات المجد والبجهة!» يسود صمتٌ جنائزيٌّ لدقائق، قبل أن تعبث أنامله بسحر الألحان.

في سنِّ الثالثة، لمسَ مفاتيح البيانو، وعند بلوغه السادسة، تعلَّم القراءة الموسيقيَّة. لم يهتمّ بالمدرسة، لطالما شعر بالنعاس أثناء الدوام. يخرج إلى الحقول والمروج الخضراء، يتخيَّل نفسه قائد أوركسترا، فتمثُل زقزقة العصافير وهدير الماء وحفيف الأشجار بين يديْه، يدوزنها ليصنع منها مقطوعةً ساحرة. يعزف بطريقةٍ مجنونة، مختلفة عن الآخرين، لم يعرفها أحدٌ قبله. أنغام من الفردوس. موسيقى ساحرة تلك التي تصنعها أنامله، لا مثيل لها في العالم. موسيقى بسيطة، لكنَّها غريبة وجميلة. عندما يعزف ينظر إلى نقطةٍ وهميَّة، لا يراها أحدٌ غيره، تبدو كأنَّها من عالم آخر. لحظات مضيئة خارج الزمن، نظيفة ومغسولة، لم تتلوَّثْ بماء التاريخ. لا أحد يدري إلى أين تصل أفكاره. يتخيَّل نفسه في جزيرةٍ بعيدة، فيها غاباتٌ ساحرة، ونساءٌ جميلات سافرات، وحيواناتٌ مفترسة، وأسرابُ طيورٍ تتماوج في السماء تحت قمرٍ أزرق لا يغيب.

يرحل بعيدًا حين يُلامس مفاتيح البيانو. يداعب النغمات برهافة. عازف بيانو عجيب، يعزف بمهارة، يداه تنزلقان كأنَّهما على بشرة امرأة. كأنَّ له أربع أيادٍ، يعبثن في جسد فتيٍّ متوتِّر، لتخرج الألحان من البيانو بإتقان. موسيقاه تعذِّب الروح. النغمات شفَّافة حادَّة. إنَّه لا يعزف فقط. العزف! لا تكفي هذه الكلمة لوصف شلَّالات السحر التي تتساقط من جنَّةٍ ملوَّنةٍ بالأحلام والرغبات. يا للغرابة، يا للصخب، يا للتناقض والتضادّ!

أساتذة مدرسته رأوه معتوهًا. غريب الأطوار. يقرأ الدروس بمشقَّةٍ. انطوائيّ. يشعر بلامبالاةٍ إزاء أيّ شيء. ينظر إلى العالم

بعيونٍ بلهاء. الطفل الأحمق صار من أشهر العازفين. كان يريد مداعبة الموسيقى. وهبَ نفسه لها، ففتح له العالم ذراعيْه. تولَّى أستاذٌ صقل موهبته، أخبره: العظمة تنساب من أناملك. منذ ذلك الوقت يطرِّز منديل دهشة، يتنقَّل به بين المدن الكبيرة. بدأ عازف بيانو في مسرح القصر، وأستاذًا في معهدٍ للموسيقى. اشتهر بعد ألبومه الموسوم بـ «الكابوس»، إذ باع منه ما يقارب الـ 20 مليون نسخة في أنحاء العالم. سيمفونيَّات غامضة تعبِّر عن المخاوف المعاصرة، متأثِّرة بأهازيج الاحتفالات الدينيَّة.

لم يفاجئه ردُّ فعل الحكومة، بعد أن سخر من الديكتاتور في إحدى مقالاته. اختطفه الأمن من المطار. بقي في السجن ثلاثة أشهر دون محاكمة. بعدها أتته ورقة الإعدام. قبلها مات تحت التعذيب أكثر من مرَّة. لولا صدفةٌ لعينةٌ أبقته حيًّا، لانتهى تحت التراب. خرج من السجن بقايا إنسان. كائنٌ أرِق، نومه خفيف. عُرضة دائمًا للكوابيس. يُعاني من رعب الشيخوخة التي بدأت تطرق بابه. جوٌّ مشحون. شعورٌ دائمٌ بالتأرجح. عالم كالبندوْل في حالة عدم ثبات. عاش خمس سنوات وحيدًا في بيتٍ وسط الغابة، مكتفيًا بمراقبة الأشجار عبر نافذة غرفته. يتلصَّص على العالم من بعيد، يمضي النهار بين الباب والنافذة، محاولًا نسيان الوقت بالعزف على البيانو. لم يغادر بيته الذي غرق في رائحةٍ عطنة. أثاثٌ مغبرّ، أكوابٌ متَّسخة، علبٌ فارغة، بقايا طعام، أعقاب سجائر، علب دواء، أوراق كتابة، أقلام حبر، مبعثرة في كلِّ مكان. الخوف جعله انعزاليًّا، إلَّا أنَّه يتحوَّل إلى كائنٍ ودود ما إنْ يخرج من شرنقته. كان شبابه كفاحًا، تخبُّطًا بين الأمل

واليأس. ترنَّح طويلًا بين الأشياء والمشاعر. نام في أسرَّةٍ كثيرات، وخاض عديد التجارب. تهرَّب من حقيقة العالم القاسية، بفلسفاتٍ سفسطائيَّةٍ من الفنِّ والأدب. انتهى إلى تعاطي المخدّرات والهلوسات. كلّ هذه الأشياء لم تُنْسِه الحقيقة، فقرَّر العُزلة بعيدًا عن البشر.

لا غاية يصبو إليها. وجد نفسه في طريقٍ فمشى. لا يثور على شيء، ولا يهادن. لم يعد جارحًا، ولم يعد حنونًا. لا هذا ولا ذاك. لا يُبالي. يمرُّ الزمن أمامه مثل سيَّارة إسعاف. مثل حشرةٍ تافهة. ينظر إلى الغابة عبر زجاج نافذته، لامباليًا بأيِّ شيءٍ. يسأل نفسه: ما الحكمة من التعلُّق بأشياء فانية؟ ما معنى الركض وراء ما هو زائل؟ كان بيته مكتظًّا بالبشر: مجانين وسكارى وعاهرات وشعراء ومغنِّين وفنَّانين ونحَّاتين. زوجته تعدّ العشاء صامتةً كأنَّه فندقٌ للجميع. لا تتقن الطبخ، يطبخ وهي تغسل الأطباق. سلبيَّة في السرير، تنفِّذ أوامره بلا تردُّد. أعجبه الأمر في البداية، أمَّا بعدها أصبح الوضع لا يُطاق. التقى زوجته صُدفةً على مقعدٍ قبالة البحر. بدأ حديثه بسؤالٍ تافه عن فتحات الجسد: كنت أُفكِّر، لماذا للمرأة فتحتان أماميَّتان، أمَّا للرجل فتحة واحدة؟ لم تُجبه، أخذتْ بالضحك.

لمسَ معجزة الحبّ. فيضان مشاعر وأفكار. أحبَّها. وجد نفسه مندفعًا إليها يحرِّكه ألمٌ لذيذ، إلَّا أنَّها كانت مزعجةً بجمالها وشبابها المؤذيَيْن. فكَّر كثيرًا في تضاريس جسدها وأسراره، رائحتها، طريقة كلامها، استسلامها له، معرفتها دعوة للخروج من تفاهة الحياة اليوميَّة وبطاقة عبور إلى المغامرة. استبدال تجارب

كئيبة بأخرى مشرقة، والوقوف أخيرًا على أرض السعادة المفقودة. أعجبته فكرة الزوج المحبّ. أن يجد نفسه تحت سقف. لديه امرأةٌ تنتظر عودته من العمل. يجلس معها إلى مائدة العشاء. تزوَّجها في ظروفٍ اقتصاديَّةٍ صعبة، فبعد زواجه بشهرٍ واحد، أُنذر بالطرد من البيت لأنَّه لا يدفع الإيجار. الغبار تراكم دون تنظيف. سقف المطبخ يدلف الماء. رائحة خانقة. بيتٌ بأجواءٍ جنائزيَّة. لم تستطع تحمُّل الحياة معه. وصلت مرحلة اليأس. بدا في غاية الغموض. لم تفهم الرجل الذي أحبَّته. فقدت الرغبة بالاستمرار. طلبت الطلاق بعد سنةٍ من زواجهما. لم يفكِّر كثيرًا، اتَّخذ القرار. عاد لحياة التسكُّع في الشوارع ليلًا، تحت أضواء النيون، يعدّ النجوم. تطارده الهواجس والمسافات. تنهشه الذاكرة. لطالما تذكَّر سؤالها: ألم يحن وقت التوقُّف عن العزف؟ صوتها بابٌ مفتوح على ذئبةٍ جريحة، في صدره، تعوي دون توقُّف. نظر إليها، ذرف دمعتيْن، رحل دون رجعة.

ما عرف كيف يُخبرها أنَّ كلّ ما يفعله لا علاقة له باليأس. عندما يعزف مقطوعاتٍ عن الحزن، فهذا معناه أنَّه يحتفي بالحياة. لا يجد سريرًا ينام فيه، وفي الصباح لا يجد شريحة خبز، مع ذلك يقول أنا بخير. النوتات أطفالٌ لا يفهمون العالم، فيواجهونه بالبكاء. قالت: أنت جافٌّ، لا تعرف كيف تحبّ. النساء أفواهٌ شرهة، وهو لا يريد أن يُقاتل أكثر. تعبَ، تقيَّأ قلبه أكثر من مرَّة. كانت تلك المرَّة الأخيرة.

أثناء تأليف الموسيقى، ينغمس في حالةٍ هذيانيَّة، تتَّسم بالغرابة والجنون. في هذا المناخ اللامعقول، تصبح الألحان

حقيقيَّةً بآلامها وأحلامها. هكذا، ينسحب الواقع رويدًا رويدًا لصالح الخيال، يصبح كلّ ما هو مُتَخيَّل حقيقيًّا. يقف بين العبقريَّة والجنون، ينهض من أنقاض عالم، ليبني آخر ببطء نملة: خدرٌ لذيذٌ شبيهٌ بعرائش الحبِّ، والابتسامات التي تتكسَّر على وجوه الغرباء. نخره الخوف من العالم فاحترس، صار حذرًا بطريقةٍ مبالغٍ فيها. يهدم قبل أن يبني. يُشعل الماء. يكسر الحرير. يخرج عن الاستئلاف ليستغرب. كيف بوسع المرء وصف هذه العمليَّة التي يسمُّونها الإبداع؟ موسيقيٌّ بارع، يعزف بحماسة، كأنَّه على صهوة جواد. عزفه تحليقٌ صاخب، يجعل السامع واقعًا تحت سطوة سحرٍ فريد، فتنفجر ألحانه بعنفٍ مثل المفرقعات في سماءٍ لامتناهية. كأنَّ ثمَّة وحيًا ما، يعزف موسيقى غنيَّة، بذيئة، قاسية، ساخرة، مثيرة للدهشة. يصنع «أَلِف» عالمًا فوضويًّا، معطوبًا، وألحانًا متوحِّشة. من عمق هذا الغضب انبثقت عبقريَّته. عبر عمليَّةٍ قيصريَّةٍ جاء إلى العالم. القدمان خرجتا في البداية، بينما الرأس تأخَّر في الداخل. ما كان يُريد الخروج. تمنَّى لو أنَّه مات في ظلمة الرحم على العيش في نور الحياة.

لطالما فكَّر في الأسباب التي تدفع المرء إلى أنْ يعيش حياةً متخيَّلة، لماذا يبحث عمَّا هو بعيد ومتوهَّم، في حين ثمَّة ما هو قريبٌ وحقيقيّ؟ لماذا يعرِّض نفسه لانحرافاتٍ خطيرة تصل إلى حدود الجنون؟ هل المُبدع مريضٌ نفسيّ؟ ما حاجته للدخول من بوَّابة الأحلام؟ واجه «أَلِف» هذه الأسئلة مثل بقيَّة المبدعين دون الوصول إلى إجابات. يبدو أحيانًا أنَّه لا يعرف ما يفعل غير تمزيق نفسه بالشكِّ. في كلِّ لحظةٍ تمرّ، يبدو غريبًا، ينسى من

هو، أين بدأ ومتى انتهى! موجودٌ في عالم ينهار، وعليه أن يُكمل، أنْ يواصل، وأنْ يجعل له معنى، لأنَّه وُلد مادَّةً خامًا، صفحةً بيضاء، في وضعٍ جنينيّ.

يرى أنَّ المعاناة ملح الحياة، وكلّ ما يراه نسفته الحرب؛ فوجد نفسه يحزم حقيبته الصغيرة، ويقرِّر «الهجرة إلى الشمال» هربًا من الموت إلى احتمالاته.

الفصل الثامن

آخذكِ وأهرب بك بعيدًا

بعد عاميْن من الولادة، كانت «3» في سوق المدينة مع ابنتها. اشترت بعض الخضار والفواكه. ما إنْ وصلت طرف السوق حتى انفجرت سيَّارةٌ مفخَّخة. كان دويّ الانفجار مرعبًا هزَّ المنطقة بأكملها. ترك صفيرًا في أذنيْها، محطِّمًا زجاج النوافذ. رأت سحب الدخان والغبار تتصاعد، والناس تركض في كلِّ الاتِّجاهات. سقطت أكياس الخضار على الأرض، وراحت ابنتها تبكي. بعد دقائق، هُرعت سيَّارات الشرطة والإسعاف إلى المكان. مثل بقيَّة الناس الفضوليِّين ركضت نحو مكان الانفجار. شمَّت رائحة البارود والدخان واللحم المحروق. سمعت أصوات العويل. لمَّا وصلت، رأت أجسادًا مزَّقتها السيَّارة المفخَّخة، فتحوَّلت إلى أشلاءٍ مبعثرة وأطرافٍ مبتورة وعجينةٍ من اللحم والغبار.

يومها، قرَّرت مغادرة أرض الخراب. اشتغلت عامًا في خدمة البيوت، وفي المصانع، والدكاكين، والحقول من أجل الحصول على نقودٍ لدفعها للمهرِّبين. حين صار المبلغ جاهزًا، هاتفت أحد المهرِّبين. جهَّزت نفسها في يوميْن، ولأنَّها لا تملك جواز سفر، كان عليها اجتياز الحدود بطريقةٍ لا شرعيَّة. التقت المهرِّب ودفعت له دفعةً أولى. أخبرها أنَّها ستكون في الجانب الآخر من الحدود دون معيقات، وسيتحرَّكان في الرابعة فجرًا. انتظرت اتِّصاله ثلاثة أيَّام، ولم يصلها أيّ خبر. بحثت عن مهرِّبٍ جديد. هذه المرَّة لم تدفع فلسًا قبل المغادرة. عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كانت سيَّارة تنتظر أسفل بيتها. أحسَّت «3» أنَّها محشورةٌ في تابوتٍ يتوجَّه نحو الحدود. توقَّفت السيَّارة بعد ساعةٍ في منطقةٍ مظلمة. أشار إليها المهرِّب بالجلوس صامتة، وألَّا تصدر أيَّة حركة. تأفَّفت! كانت خائفة من غدر المهرِّب. ما الذي يمنعه من قتلها وسرقة نقودها؟ هذه الفكرة المرعبة ظلَّت تطرق رأسها طوال الطريق. أوجعها ظهرها من كثرة الجلوس. أحسَّت بالاختناق. نزل المهرِّب من السيَّارة. سألته: ماذا ننتظر؟ لماذا لا نتحرَّك؟ أشار بإصبعه إلى فمه طالبًا منها الهدوء. بعد لحظات، طرق على ظهر السيَّارة. فتح الباب وأمرها أن تركض باتِّجاه البساتين. أمسكت ابنتها بيدٍ والحقيبة باليد الأخرى، وراحت تهرول بين الأشجار، في العتمة، حتى وصلت مكانًا قريبًا من نهر.

تفاجأت بعشرات العائلات التي تنتظر عبور الحدود، ومهرِّبان مسلَّحان يشتمان ويتعاملان بفظاظة. كان الجوُّ مقلقًا، فالأطفال يبكون، والنساء يلهجن بالدعاء. جلست على الأرض

في عراءٍ موحشٍ وضبابٍ كثيفٍ يلفّ المكان. أسندت ظهرها إلى الحقيبة. مدَّت الطفلة يدها لتتشبَّث بثوب أمِّها، كانت خائفةً من الظلام والغرباء. أمرهم المهرِّبان بالتحرُّك. انطلقوا بين الأشجار في ليلةٍ شتائيَّةٍ باردة. شقُّوا النباتات الطويلة بأقدامهم، وقطعوا الأغصان المتشابكة بالسواطير ليتمكَّنوا من العبور. تسلَّقوا دروبًا وعرة، وأُصيبوا بجروح. بعد مرور ساعةٍ بدأت السماء تُمطر. أفرغت جحيمها على رؤوس اللاجئين. تحوَّلت الأرض إلى بِرَكٍ طين، ومعها كثرت حوادث الانزلاق، أخذ اللاجئون بالارتجاف من البرد.

تناهى إليهم عواءُ كلابٍ تردَّد صداه بين الجبال. أخبرهم المهرِّبون أنَّها كلابٌ متوحِّشة. كانوا يعرفون أنَّ الجثث التي تغذَّت عليها طوال سنوات، جعلتها أكثر شراسةً وحوَّلتها إلى وحوشٍ آكلةٍ للبشر، لا بدَّ من أنَّها قطيعٌ كبير من الجياع. عواء الكلاب اقترب، ركضوا على الرَّغم من التعب، بعضهم علق في الوحل، ساعدهم آخرون. يتساقطون، ينهضون، يتجاسرون للوصول، يبكون، يصرخون، تمتزج دموعهم بالمطر والطين، شعروا بالموت والحياة على مسافةٍ واحدة. مرَّت ثلاث ساعات على المشي ليلًا في غاباتٍ كثيفة الأشجار، يلفّها ظلامٌ دامس، والأمطار الغزيرة تتساقط فوق رؤوسهم. بدأ اللاجئون بالوقوع من شدَّة البرد والإرهاق. جرحت أغصان الأشجار وجوههم وأيديهم. نزفوا الدماء، غير أنَّهم واصلوا السير. احتضنت «3» ابنتها المنهكة، اضطرَّت للتخلُّص من حقيبتها، لتتمكَّن من مواصلة المشي.

المطر لم يتوقَّف والوقت مَرَّ بطيئًا. أجسادهم متعبة وقلوبهم مليئة بالذعر. تمنَّت «3» الرجوع إلى بلادها، والموت بين أهلها الطيِّبين. الدفن في مقبرةٍ جماعيَّة، أفضل من الموت ممزَّقةً بأنياب الكلاب. شعرت بخوفٍ جديدٍ لم تجرِّبه، ينهش روحها، ويستنزف طاقتها. الخوف يطوِّقها، كالعادة، من كلِّ مكان. تريد النسيان وبدء حياةٍ جديدة. تشمّ رائحة الموت في هذه الغابات. تساءلت عن الذين ماتوا قبل أن يجتازوها، رحل المهرِّبون تاركين خلفهم العجائز وغير القادرين على مواصلة السير. ابتلعهم الوهم الذي رحلوا من أجله. لم يكفَّنوا كالأموات الطبيعيِّين، ليُدفنوا في قبورٍ لائقة ونظيفة. لا كرامة للجسد الذي مات بالتعب والجوع، تتولَّى أوراق الأشجار تكفينه، وتشيِّعه حشرات الأرض.

بعد خمس ساعات، اجتاز اللاجئون الحدود. كانت حافلات وسيَّارات رباعيَّة الدفع بانتظارهم. تمدَّدوا منهكين مثل خِرَقٍ ملطَّخةٍ بالوحل والقيْء. حصلوا على الماء وبعض المناشف. لم يكن لديهم القدرة على الحديث، سلَّموا أمرهم للمهرِّبين. وصلوا إلى مبنى قديم ومتهالكٍ من طابقيْن، جدرانه لا طلاء عليها ونوافذه صغيرة. بدا سجنًا كبيرًا أُعدَّ لهم. أمرهم المهرِّبون بالمكوث في المكان، وحذَّروهم من الخروج. عليهم الراحة للتحرُّك ليلة الغد. سيوفِّرون الطعام والأغراض التي يحتاجونها مقابل النقود، وسيتواصلون مع مهرِّبٍ آخر لينظِّم السفر على متن قارب. كانت الطفلة تغلي من الحرارة. وضعت «3» منشفةً مبلَّلة على جبهتها، وطلبت من المهرِّبين توفير الدواء. أبدلت ملابسها. لفَّتها بالأغطية. التصقت الطفلة بجسد أمِّها من

شدَّة البرد والخوف. ترتجف طوال الوقت، ثم تغفو قبل أن تصحو باكية.

لم يمت أحد. لكنْ أصابتهم الأمراض، فالشتاء قارس، والمكان شديد القذارة. الخوف اعترى الجميع من وصول الشرطة، ثم العودة إلى بلدهم، حيث الموت بالسيَّارات المفخَّخة وقطع رؤوسهم بسيوف المتطرِّفين. كان يصلها صوت شخيرٍ وبكاء وأنين مؤلم، فيتبدَّد النعاس في عينيْها. ليلةٌ طويلة تعوي فيها الرياح. شخيرٌ وأنفاسٌ مخنوقة. ظلامٌ حالك، لم تعد ترى شيئًا، والبرد ينخر عظمها. استندت إلى الجدار، والطفلة مضطجعة في حضنها. غفت دقائق، تخيَّلت نفسها في حديقةٍ جميلة، وطفلتها تلعب بالرمل والحصى.

مساءً، أوقف المهرِّبون شاحنتيْن أمام البناية. دخل أحدهم صارخًا: «هيَّا، ستعبرون البحر.. اتركوا حقائبكم، القارب لا يتَّسع»، اجتازت الشاحنتان النقاط الأمنيَّة دون توقيف. اعترف المهرِّبون أنَّهم رشوا الجنود، لن يتعرَّضوا لهم بأذًى، إلَّا أنَّ اللاجئين كانوا خائفين. نظرت «3» إلى الطريق وشطحت بأفكارها: بعد دقائق ستكون في البحر، إنَّها رحلةٌ مُتعبة، الخوف من الغرق ومن قوَّات أمن السواحل يشغلها، إلَّا أنَّها الخطوة قبل الأخيرة. كانت طفلتها قد تحسَّنت، انخفضت حرارتها، اعتادت على ظروف السفر، ما رفع من معنويَّاتها. عندما وصلت الشاحنتان إلى الساحل، وجدوا قاربًا بانتظارهم. أطفأ المهرِّبون الأنوار، ونزل اللاجئون على أرضٍ رمليَّة. كان الليل قد هبط على الشاطئ، لم يكن باستطاعتهم رؤية شيءٍ غير أضواء القارب.

جهَّزوا أنفسهم، ودفعوا النقود للمهرِّبين. صعد إلى القارب حوالى خمسة وسبعين لاجئًا، بينهم نساءٌ وأطفالٌ مذعورون من صوت البحر والمهرِّبين المسلَّحين.

خافوا من الغرق، فأغلبهم لا يعرف السباحة. زوَّدوهم بستر النجاة، كانت تشعرهم بالهلع أكثر من الأمان. سترة النجاة تعني أنَّهم مهدَّدون بالغرق. بعض اللاجئين يخافون البحر، مجرَّد رؤيته يسبِّب لهم فقدان الوعي. وجدوا أنفسهم مضطرِّين لعبوره مع قلَّة الخيارات المتاحة. المهمّ وصولهم إلى الضفَّة الأخرى، حيث مدن الأضواء والشوارع النظيفة. للموت احتمالاتٌ كثيرة، منها الغرق. كانت «3» قد سمعت عن كوارث وقعت في هذا البحر، عن رحلاتٍ فاشلة أودت بحياة المئات. قوارب طويلة، بمحرِّكاتٍ هزيلة، لا ترتفع غير سنتميتراتٍ عن سطح البحر تحمل أعدادًا كبيرة.

بدا القارب علبة سردينٍ محشوَّةً بالأجساد. تسارَعَ خفقان القلوب التي ضخَّت دماءً كثيرة. هبط الصمت على رؤوس الجميع مرتعبين ينتظرون لحظة الانطلاق. تحرَّك القارب هادرًا بمحرِّكه يشقّ أمواج البحر المتلاطمة. شعر الركَّاب أنَّ القبطان عديم الخبرة، والمحرِّك تعطَّل عدَّة مرَّات. كان الأطفال يبكون، والنساء يتمتمن، يصلِّين للإله ليحمي القارب من غدر البحر وخَفَر السواحل. عبروه في عمق الليل والعتمة تُخيِّم على العالم. صدورهم خاوية، قلوبهم ترتجف بتوتُّر. حمولةٌ بشريَّةٌ ثقيلة، يحملها الموج، قد تتحوَّل إلى كومة جثثٍ طافية، يبصقها البحر نحو الشواطئ. لا ضمانات، إذ تتساوى فرص الموت والنجاة.

لا أحد يستطيع التكهُّن بمصيره. قد يقبض عليهم أمن السواحل، أو يفقد القارب توازنه، ليتساقط الركَّاب في الماء واحدًا بعد الآخر.

أحسَّ أغلبهم بحاجةٍ للتقيُّؤ. أسندوا أجسادهم التي تتصبَّب عرقًا على حوافِّ القارب، وقاوموا الشعور بالغَثَيان. كانت رائحة الملح والقيْء وزيت المحرِّك تمتزج في دواخلهم. ارتفع الصراخ حين تلاطم الموج ضاربًا القارب، في عتمةٍ تغطِّي البحر، لا يرون منها غير توهُّج سجائر المهرِّبين. القارب يتراقص. العيون مغمضة. الأنوف المحمرَّة تسيل. القيْء في كلِّ مكان. الموج العالي المتلاطم بثَّ الذعر في قلوب اللاجئين، ورؤية القبطان الذي بدا متوتِّرًا طالبًا من الجميع التزام الهدوء، يمرِّر يده على وجهه ليجفِّف عرقه محدِّقًا في عيون الناس الخائفين.

ثلاث ساعات من مناورة الموت، وعلى المغامرة الأكثر خطورةً في رحلة اللجوء. كلَّما اقتربوا من الوصول زادت احتمالات غرقهم. توهَّمت «3» أنَّها تغرق، والأسماك المتوحِّشة تلتهمها. تخيَّلت أنْ تكون نهايتها في البحر. وابنتها؟ عندما نظرت إليها، شعرت بخوفٍ كبير. الماء مجنون، وقرش البحر جائع. كانت مُصابةً بالدوار، فأفرغت كلّ ما في معدتها، وأصابها سعالٌ شديد. متى سينتهي هذا العذاب؟ أمسكت الأمّ بيد ابنتها وضمَّتها إلى صدرها. كلّ شيءٍ سيمرّ، لا تخافي. انفجرت الطفلة في البكاء، تبلَّل وجهها. موجةٌ قويَّة ضربت القارب، فارتفع صراخ المذعورين. البحر هائج، لكنَّه ليس بتلك الخطورة. سنصل، تقول الأمّ لابنتها، لا تفقدي الأمل. خائرة القوى، ليلٌ كثيفٌ

وطيورٌ ليليَّة وحذر، حتى القمر كان غائبًا وراء سحابٍ كثيف. تنتظر الصباح، تريد ضوء الشمس، أنْ ترى ما يحدث حولها، إلَّا أنَّ الليل طويل، أطول ممَّا تخيَّلت. بكت. نظرتْ يُمنةً ويُسرة، لا شيء غير العتمة. الظمأ. هل تشرب؟ مياه البحر بالغة الملوحة والدموع تسيل. بدأت تفقد صوتها بسبب الصراخ، والإنهاك أوصلها إلى درجة العجز عن الحركة.

هل تنتظرها حياةٌ جديدة بعيدًا عن الخوف اليوميّ؟ فكرة أنَّهم يتشاركون المصير نفسه، أراحتها، ومنحتها بعض العزاء، فإمَّا الموت أو الحياة. كانوا ينظرون إلى بعضهم كمشاريع أموات. لم تتخيَّل أنَّ كوابيسها المخيفة ستتحوَّل إلى واقع، وأنَّ أفلام الرعب ستخرج من الشاشات، لتبرهن لها أنَّ العالم ليس أكثر من غابةٍ موحشة، حيث المهرِّبون واللصوص والقَتَلة. ليست وحدها، جثثٌ كثيرةٌ في القارب، تأمل بالنجاة من البحر، بعد أن نجت من المجازر. صراخٌ وحشيٌّ خوفًا من تسرُّب الماء. دموعٌ تسيل على الوجنات المتعبة. حولهم جُزُرٌ من ملحٍ أسود. أُناسٌ وحيدون يتحطَّمون، دون أن يلفتوا الانتباه. كانتْ أصوات قلوبهم مخيفةً وهي تتصدَّع، كلَّما أبحروا تهشَّم المدى الفسيح أمامهم. أخبرهم القبطان أنَّهم يقتربون من الجزيرة. لم تكن «3» تعرف أين تقع، كم تبلغ مساحتها، هل هي مدنيَّة أم عسكريَّة. على الشاطئ سترات نجاة، أكياس بلاستيكيَّة، دمى، ملابس، جنود بانتظارهم.

الفصل التاسع

بعد الإبحار في المياه الخَطِرَة

وجدوا أنفسهم في قاعةٍ كبيرةٍ خالية، أرضيَّتها باردة، وجوُّها خانقٌ رطب. كانت مكتظَّةً باللاجئين، نساءً ورجالًا وأطفالًا من مختلف الأعمار، ارتموا على الأرض بأسمالهم المتَّسخة بالدماء والقيْء. وجوههم مصفرَّة، كأنَّها لأمواتٍ خرجوا من قبورهم مذعورين. صامتون، يبحلقون في الضبَّاط والجنود الواقفين أمامهم. استجوابٌ وتخويف. رَكْلٌ بالأقدام وأعقاب البنادق. بعد مرور ساعات، ارتفع الشخير من كلِّ مكان، الأحاديث ذاتها بدأت تُسمع، ارتفعت الأصوات المتذمِّرة. راحوا يتذكَّرون مدنهم وقراهم التي تدمَّرت، ولم يبقَ منها حجرٌ على حجر. يحدِّقون في عيون بعضهم بصمت، يلومون أنفسهم على اللجوء. يخجل الرجال من النظر إلى نسائهم إذ يشعرون بالإخفاق في حمايتهنَّ،

علامات الضرب واضحة على أجسادهنَّ وعيونهنَّ مليئة بالفزع.

حدَّقت «3» في المأساة المجسَّدة أمامها، ندبت حظَّها، فكَّرت في المصير الذي ينتظرها. بحثت عن امرأةٍ تبادلها الحديث لتوقف طوفان الرعب بالكلمات، فأخذت تلعن الجيش، وتتحدَّث عن كيفيَّة اغتصابها.. قتل زوجها وابنتها. رأت قريتها تحترق أمامها، وجاراتها يُغتصبن، يصرخن وما من مجيب، فقد أغلق العالم أذنيْه، ومات فيه الرجال الشرفاء. وجوهٌ مرعوبة، متجهِّمة، خليَّة نحلٍ تنتظر لحظة الانطلاق، الطنين يعلو، الكابوس يحلِّق فوقهم، الغربة تثقل عليهم وطأتها. يتعرَّفون إلى نوعٍ جديدٍ من الأسئلة للمرَّة الأولى: ما الوطن؟ ما اللجوء؟ ما الغربة؟ الذكريات تحاصرها، وتفاصيل الحكايات القديمة تتداعى. قبل اقتحام الجيش قريتها بحوالى أسبوع، لجأ أكثر من أربعين شخصًا، أغلبهم نساءٌ وأطفال. زوجها رافق عائلة، وفتح لها باب البيت، لم يكن ثمَّة متَّسع لاستيعاب نازحين آخرين. تناولوا طعامهم وناموا في أمان مدَّة ستَّة أيَّام، قبل وصول الجيش إلى القرى القريبة، حينها قرَّروا النزوح من جديد. كانوا معتادين على الرحيل، أمَّا عائلتها فقد كانت تختنق خارج حدود القرية. وُلدوا في حقولها الشاسعة، كبروا من خير ثمارها، لا يعرفون غير طرقها الوعرة. تحدَّثت العائلة النازحة عن جرائم القوَّات الحكوميَّة، وما فعلته بالنساء والأطفال، الذبح بقطع الرؤوس، ورمي الجثث لكلاب البرِّيَّة. لم يكن هناك جديدٌ في قصص الموت، فقد أصبحت عاديَّةً ومكرَّرة. أضاع الموت هيبته، وما عاد يُخيف أحدًا. وحده الاغتصاب كان يُثير المخاوف، ذبح

بعض الرجال نساءهم قبل وصول الجنود، كما فعل أجدادهم زمن الغزو بين القبائل.

تعمَّد الجنود اغتصاب النساء لإلحاق الإهانة بالقبائل المناوئة، كَسْرهِم معنويًّا وإخافتهم، وإنهاء ثورتهم بأكثر الطرق قذارة. لم يعترفوا بأيِّ أخلاقٍ أو قيمٍ أو ضميرٍ إنسانيٍّ، الانتقام يعمي الإنسان، يجعله عبد غرائزه، والجنود أوفياء لقادتهم، يطيعون الأوامر ولا يعصونها، يقتلون، يغتصبون في ألاعيب لتزجية الوقت. نزح مئات الآلاف من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، من الشرق إلى الغرب وبالعكس. النزوح حركةٌ دائمة، والنازح كائنٌ لا يستقرّ، ينتقل بحسب مجريات الأحداث، قدره الرحيل وحمل الذكريات الثقيلة على كاهليْه أينما ذهب. القرى الموالية لم تستقبل النازحين، كانوا يطردونهم بالشتائم واللعنات. يخرج الصبيان ويرمونهم بالحجارة، تلقي النساء البَيْض والخضراوات الفاسدة، بينما يدافع الرجال عن القرية من تطفُّل هؤلاء الخَوَنَة أعداء الوطن. الأرض تضيق على الهاربين من الموت، تصغر البلاد، تتحوَّل إلى زنزانة.

حاولت «3» إغماض عينيْها والنوم قليلًا. كان الجوُّ باردًا، والهواء يتسرَّب إلى جسمها، فعانقت ابنتها... فكَّرت بطريقةٍ تساعدها على طرد الذكريات القاسية، وجعلها هادئة، خاصَّةً أمام الفتاة المنهكة من رحلة اللجوء. الآخرون حاولوا إراحة أنفسهم. الأطفال اختاروا الاستلقاء في أحضان أمَّهاتهم، المتزوِّجات أرخينَ رؤوسهنَّ المتعبة على أكتاف أزواجهنَّ.. بينما «3» أسندت ظهرها إلى جدار، واختارت تحرير دموعها، لتستريح من ثقل ما

تكبته من مشاعر، إلَّا أنَّ عينيْها كانتا جافَّتيْن، وروحها معتلَّةً في فوضى. الحلم ليس ترفًا. تفكِّر فيما تبقَّى لها في عالمٍ يبخل عليها بالأمان. تنظر إلى ابنتها، تتخيَّلها قد كبرت، تمشي بثقةٍ تحمل كتبها في ردهات الجامعة، تُنشئ صداقات، تخرج في رحلٍ خارجيَّة، تأكل طعامًا نظيفًا، تحبّ، تتزوَّج، تُكوِّن عائلةً سعيدة. ابنتها مثل بقيَّة الأطفال الناجين، تبوِّل في فراشها، بسبب الذعر، تستيقظ بثيابٍ منقوعة، ووجهٍ مرتبك، وجسدٍ متيبِّس. أحيانًا لا تنام الليل، تبقى تُحدِّق في السقف بعيونها الصغيرة. تتبخَّر كلّ الأفكار الطيِّبة من رأسها. ما إنْ ترى الطفل المرتجف في حضن أمِّه، حتى تنظر إلى طفلتها، فيبتلعها الخوف. كم كبرت! حفرت السنوات في خدَّيْها خطوط التعب، سرق العمر طفلتها ولم تنتبه، فالبنت تعلَّمت ألَّا تشكو، وهي امرأةٌ سكنها التيه.

في الخارج، كانت عربات عسكريَّة تنتظر الأوامر، لترمي بالنازحين عند حدود الدولة الجارة، متخلِّصة من أكياس القاذورت، الكائنات المتخلِّفة التي هاجرت من الجنوب، وما زالت تبحث عن جحورٍ آمنة للاختباء.

الفصل العاشر

كانت دائمًا تحلم

بعد أنْ شاءت الصدفة، استطاع الهاربون الخروج سالمين من الغابات الموحشة، والنجاة من الغرق في بحرٍ متخم بالجثث. حاولوا عبور الحدود عبر السياج، لكنَّهم اكتشفوا انتظار الجنود لهم في الجانب الآخر. اختبأوا بين النباتات الطويلة وراء جذوع الأشجار. اختلفوا فيما بينهم.. جماعةٌ فضَّلت تسليم نفسها، وجماعةٌ قرَّرت البحث عن طريقةٍ أخرى للعبور.

خيَّموا في حديقة. بعد يومَيْن، وصل إلى المخيَّم عاملون في هيئات الإغاثة والأمم المتَّحدة. أعطوهم أدويةً وأغطيةً وقدورًا للطعام. أشعلت «3» كومة قشٍّ وحطب لأنَّ درجات الحرارة منخفضة، وبدا أنَّ الصقيع يتسرَّب من مسامَّاتها نافذًا تحت جلدها. فكَّرت في ابنتها التي ينهشها البرد محاولةً تدفئتها بكلِّ

الطرق. مسحت بعينيْها الغائمتيْن قمم الجبال المغطَّاة بالثلوج. ضمَّت طفلتها تحت غطاءٍ سميك، لم تنتبه كم مرَّ من الوقت عليها جالسةً تُنقِّل نظرها بين الثلج والجمر. طقسٌ صقيعيٌّ لم تعرف مثله في حياتها. برد بلادها مزحة مقارنةً بما تشعر به في هذا العراء. درجات الحرارة تحت الصفر، الثلوج تُحيط بها.

أحسَّت بشخص يقترب من الخيمة. كانت السماء مظلمةً بلا نجوم، والمكان غارق في عتمةٍ حالكة. تسارعت نبضات قلبها. ترقَّبت بحذر. وقف أمامها رجلٌ طويلٌ بجسدٍ رياضيٍّ، تحت أسمالٍ رثَّة تحرِّكها الريح. مدَّ نحوها طبقًا، «إنَّه حساءٌ ساخن، يحتاجه جسدك في مثل هذا الجوّ». عندما سمعته يذكر جسدها، سرت رعشة مخيفة في عروقها. أجفلت منه، ورفضت أخذ الحساء. طلب أن تُعطيه لابنتها، فكَّرت إنْ رفضت فستبدو أنانيَّةً في عينَي الغريب. أخبرها بفكرته لاجتياز الحدود، وأكَّد عليها بأنَّ الأمر لن ينجح إلَّا بموافقتها. ضيَّقت عينيْها باستغراب. حاولت قراءة ملامحه، إلَّا أنَّ وجهه كان غارقًا في الظلام. بقيت صامتة، ثم استدارات مشيرةً بيدها. لا تريد الإصغاء خشية أن يخدعها. لم يعد لديها ثقةٌ بأيِّ رجل. استجمع الغريب قوَّته، انحنى، مدَّ رأسه نحو الأمام. ضمَّ كلتا يديْه كأنَّه يشرع في صلاة. «أرجوكِ، اصغي إليَّ». شعرت بصدقه. لوهلةٍ خُيِّل إليها أنَّها ترى زوجها. شعورٌ غريبٌ مفاجئٌ انتابها. كانت تفوح منه روائح طينٍ وعرقٍ وروث حيوانات. قرفص على ركبتيْه باسطًا كفَّيْن ثقيلتيْن وجافَّتيْن.

«أتريدين عبور الحدود؟»

هزَّت رأسها.

«لا يمكن اجتياز السياج الأمنيّ مع كلِّ تلك التجهيزات العسكريَّة. خطرت لنا فكرة، إنَّها أملنا الوحيد في الوصول. لاحظ موظَّفو منظَّمات إغاثة اللاجئين أنَّ حرس الحدود لا يوقفون مواكب الزفاف، وبذلك تمرّ عن نقاط الأمن دون أن تتعرَّض للتفتيش. سيساعدنا بعض المتطوِّعين الأجانب حمَلَة الجوازات، على الرَّغم ممَّا فيها من مخاطرة، فقد تصل عقوبة تهريب اللاجئين إلى السجن عشر سنوات. سنؤدِّي مسرحيَّةً صغيرة، نلعب فيها دور عروسيْن. لا تقلقي. لن يتجاوز الأمر ساعات. إنَّه زواجٌ مزيَّفٌ لنمرَّ عن الحدود، بعدها سيعود كلٌّ منَّا إلى حياته الطبيعيَّة».

شعرت بأنفاسه تمرُّ سريعًا من مسامَّات جلدها، وتنفذ إلى صدرها، لتستقرّ قريبًا من قلبها المتعب. تذكَّرته. لفت انتباهها أكثر من مرَّة. اسمه «ألِف»، كان بمثابة قائدٍ للمجموعة، أخذ عدَّة قراراتٍ مصيريَّة، كما ساعد النساء والأطفال في اجتياز الغابات.

في القرية الحدوديَّة، صباح يوم أحد، ذهبت إلى صالون الحلاقة، قصَّت شعرها، وضعت المكياج، ارتدت فستان زفافٍ أبيض. انتظرها عند باب الكنيسة مرتديًا بدلةً سوداء، وقميصًا أبيض، وربطة عنق. حضر اللاجئون بكامل أناقتهم. بعد ساعتيْن، كانت السيَّارات المزيَّنة بالورود والشرائط تقترب من الحدود.

«لست متفائلة. لا يحالفني الحظّ في أغلب الأحيان»، قالت

بشفتيْن مرتجفتيْن. كانت خائفةً من انكشاف أمرهم، ومن الرجل الذي يجلس بجانبها. فاجأه كلامها. بدت منطويةً على نفسها، لا ترغب في الحديث، تعطيه ظهرها، ولا تلتفت إليه. حركة جسدها بعثت الانطباع أنَّها لا ترغب بأيِّ اتِّصالٍ مع الآخرين. قال لها: «لا تفقدي الأمل، لم يتبقَّ شيءٌ على الوصول، نقطة حدوديَّة.. سنكون هناك»، همست إليه وهي تنظر إلى السيَّارات عبر النافذة: «ليس لديَّ أمل، العالم تركني فريسةً للوحوش، إنَّه يضعني في اختبارٍ لا أعرف مغزاه». كانت تقول أفكاره، يعرف أنَّها على حقّ، غير أنَّه أنكر حديثها. أغلق أذنيْه عن سماع أسئلتها. من المخيف البوح أنَّنا لسنا أحرارًا، مجرَّد بائسين في نصٍّ لا نحبّه، ولا يد لنا في صنعه.

واصلت بشهيَّةٍ كبيرة للكلام: «أنا مشوَّشة، مضطربة، لا شيء غير الأفكار في رأسي، لا شيء سوى الضجيج... أصوات... لا أدري ما الحقيقة»، لاحظ أنَّها تشبهه، لا تعرف المداهنة. إمَّا الفردوس أو الجحيم. لا حلول وسطى، ولا خيارات. أبيض أو أسود. طريقان لا ثالث لهما. نظرت إلى الخارج. بدا العالم جميلًا. لكنْ، هل من أحدٍ يعرف أين ينتهي؟ ترغب في النظر إليه من بعيد. لا تريد العيش فيه. موحشٌ وغريب، لكنَّه فاتن. سحره في التناقضات، أجمل ببعده مثل قمر أزرق. الحزن أضفى عليها جمالًا خاصًّا. رآها جميلةً وناضجة. لمس عمق التجربة الأليمة التي مرَّت بها، أعجبته، قرَّر أن يتقرَّب منها. صام طويلًا عن النساء، والآن يريد امرأةً في حياته. عادت ذاكرتها إلى الوراء. تذكَّرت حفل زفافها: الحنَّاء، ملابسها

المطرَّزة، الرقص، الموسيقى الشعبيَّة. أحسَّت أنَّها تخون زوجها القتيل، فتألَّمت ذارفةً الدموع بصمت. أدركت أنَّ الأسوار التي شيَّدتها أمام الرجال بدأت تنهار. لم تفكِّر في رجلٍ منذ أربع سنوات. كانت تراهم متحرِّشين ومغتصبين، ترفض اقتراب أحدهم منها. شيءٍ ما تغيَّر، تشعر به ولا تستطيع التعبير عنه. خَدَرٌ لذيذٌ سرى في أوصالها بسبب رجلٍ عابرٍ يلعب دور العريس. بدا لها الأمر جدِّيًّا. لأوَّل مرَّةٍ تفكِّر في الزواج منذ وفاة زوجها. تعرف أنَّه حقَّها كامرأة، إنَّها بحاجةٍ إلى رجلٍ في حياتها، إلَّا أنَّ الحادثة الوحشيَّة ما زالت تُخيِّم فوقها، تعتبر الرجال ذئابًا في غابة. منذ ذلك الوقت تخافهم، يذكِّرونها بالضابط الذي استباح جسدها. لم تتصوَّر أن يلمسها رجل، تشعر بالاشمئزاز من رائحة الذكورة. كيف ستتزوَّج وتعيش حياة طبيعيَّة؟ ما الذي سيضمن لها أنَّ الرجل الذي تحبُّه، لن يكشِّر يومًا عن أنيابه؟

كانت السماء تمطر بين الفينة والأخرى. واصل موكب الزفاف شقَّ طريقه طوال ساعتيْن. تحرَّكت السيَّارات بسرعةٍ عاديَّة. لم يوقفها أيّ حاجزٍ حتى وصلت نقطة الحدود. أوقف الجنود السيَّارت، دقَّقوا في أوراق السيَّارة الأولى. بقيت «3» ساكنة لدقائق، قبل أن تشعر بضيقٍ في التنفُّس. أخرجت رأسها من النافذة، راقبت حرس الحدود. همست لنفسها: «أفضِّل الموت على الرجوع» ارتجفت خوفًا. لا تريد الموت عند الحدود أو الانتهاء في السجن. تحلم بمستقبلٍ أفضل لطفلتها. لم ترتكب جرمًا، بحثت عن الأمان والعيش بكرامة، لو وجدتهما في بلدها لما اضطرَّت للرحيل. نظر الجميع إلى ساعاتهم، تهامسوا

بأصواتٍ خفيضة. بدا الوقت ثقيلًا. أخيرًا، تحرَّك الموكب قاطعًا الحدود. لم تصدِّق «3» أنَّها صارت في البلاد التي حلمت بها. ضحكت من قلبها للمرَّة الأولى منذ سنوات.

في دائرة اللجوء، أخذوا ما احتفظت به من وثائق. سألوها عن أسباب لجوئها. حكت لموظَّف دائرة الهجرة عن القتل والاغتصاب وحرق قريتها. ظنَّت أنَّ قصَّتها استثنائيَّة، إلَّا أنَّ الموظَّف نظر إليها ببرود، أسمعها بعض عبارات المواساة، كان واضحًا أنَّه اعتاد سماع القصص المأساويَّة. بعدها عُرضت على لجنة طبِّيَّة ونفسيَّة للتأكُّد من أنَّها ضحيَّة اغتصاب، على إثره، تُقرِّر دائرة الهجرة منحها حقَّ اللجوء من عدمه. ملفَّها المعنون بالهجرة والاغتصاب ظلَّ مركونًا في الأدراج فترةً طويلة. بعد حوالى ثلاثة أيَّام، أخذوها إلى مخيَّم في أقصى الشمال، حيث الجوّ أشدّ برودةً وأكثر عزلة. أنزلوها في مبنًى طوبُه أحمر، أشبه بالسجن، يحتوي عشرات الغرف، الغرفة الواحدة تتَّسع لأربعة أشخاص. بقيت «3» معتكفةً أشهرًا في المخيَّم، تعيش تجربة الاعتقال، مع لاجئين غرباء من جنسيَّاتٍ مختلفة، هربوا من بلادٍ لم تسمع بها، غارقةً في الحروب والمجاعات، يتحدَّثون لغاتٍ لا تفهمها، حاملين أزماتهم إلى المخيَّم. كلُّ لاجئٍ عالَمٌ معزولٌ عن البقيَّة، والاندماج مسألة معقَّدة. لم تجد «3» شخصًا تثق به، وتتحدَّث معه براحة؛ بقيت، كعادتها، وحيدة.

بعد طول انتظار، وصلتها رسالةٌ من دائرة الهجرة، تُفيدها بضرورة الحضور لإجراء مقابلةٍ رسميَّة. بعد ساعاتٍ من الأسئلة، تخلَّلها فترة استراحة، انتهت مقابلتها، لتغادر دائرة الهجرة عائدةً

إلى المخيَّم. أصبحت حياتها متوقِّفةً بين المكانيْن. تنتظر انتهاء ملفّها لتنتقل إلى إحدى المدن، وتودِّع مخيَّم اللاجئين.

تحتمل الضجر والخوف والعزلة. الانتظار موتٌ بطيء، أرادت أن ترحل في أقرب فرصة. المخيَّم تحوَّل إلى سجنٍ حقيقيٍّ. مكانٌ كئيب، رائحته كريهة، لا تفعل فيه غير الأكل والذهاب إلى الحمَّام.

اللاجئ يحلم بالأمان، وكلّ ما يتمنَّاه الحصول على الإقامة.

الفصل الحادي عشر

مهمَّة بشكل خاصّ

ألقت «3» نظرةً سريعةً على الطاولات. وجدت المكان هادئًا وبسيطًا. لمحته فابتسمت وتقدَّمتْ نحوه. أخذت نَفَسًا عميقًا. حاولتْ أن تبدو طبيعيَّةً قدر الإمكان، لكنَّ لهاثها واحمرار وجهها فضحاها بشكلٍ علنيٍّ. كانت متوتِّرة تنظر حولها باستمرار. رجلٌ غامض، اعتقد أنَّه خُلِق ليعزف ولا يصلح لفعل شيءٍ آخر. سحب قدَّاحته، أشعل سيجارة. نظر في عينيْها، فارتسمت ابتسامةٌ على وجهها. بدت له جميلة. همس لها باستغراب كأنَّه يكتشفها للمرَّة الأولى، هي الساخرة من الحياة ومن كلِّ شيء: ما أغرب تصرُّفاتك! لم تفسح له المجال، قبل أن يتجاوز هذه العتبة، جاءه صوتها من مكانٍ دافئٍ داخلها. سحبته من جديد إلى دائرتها، بسؤالٍ مفاجئ، برق في ذهنها: ماذا تريد؟ انتبهت إلى مجموعة

لوحات مرصوصة بألوانها المستفزَّة للإعجاب. حين سكنت ضجَّة المقهى، وبدأت الأمطار في الخارج بالتساقط مرَّةً أخرى، رفع نظره إلى عينيْها، قال لها مباشرةً بصوتٍ واثق: «أنْ أتزوَّجك» لم يجد طريقةً أفضل للبوح، قد لا تصادفه اللحظة المناسبة، أراد أنْ يقول لها كلّ ما في داخله، دون أن يمنحها فرصةً للاعتراض. كان عرضه مفاجئًا، وبطريقةٍ جافَّة. «أن أتزوَّجك»، هكذا قالها بلهجةٍ قاطعة، متيقِّنة. بقي يتحدَّث إليها، يحاول إقناعها، يشدّ على أوتارها الضعيفة. تورَّدت وجنتاها. أحسَّت بمزيج من السعادة والخوف، كأنَّ الكلمات هزَّتها في العمق، اتَّكأت بظَهرها إلى الكرسيّ، ثم تركته ينتظر إجابتها التي لم تأتِ. تجاهلته، ثم أعادت سؤالها بطريقةٍ أخرى: أرملة وأمّ لطفلة! بإمكانك الزواج بفتاةٍ أصغر وأجمل، لماذا اخترتني؟

ـ أنا منهكٌ، تعبتُ من الوحدة. أحتاج امرأةً في حياتي. هل تفهمين ما أعني؟ هذه أشياء يصعب شرحها.

تيبَّستْ أناملها، وانحسرتْ أمواج فضولها. تذكَّرت زوجها الذي أسمعها كلامًا مشابهًا: الوحدة قاسية، أُريدكِ بجانبي. نظرت نحو الشوارع الخالية، كانت الأمطار تهطل بغزارة، شعرت بالبرودة فانكمشت على نفسها، أحسَّت بالدموع تتحرَّك في عينيْها المتعبتيْن. في قلبها جرحٌ لم يندمل. وجدت نفسها عاريةً ينخرها البرد، حافيةً تمشي على شظايا زجاجٍ مكسور. اندفعت الذكريات دفعةً واحدة: حادثة الاغتصاب، وجه زوجها المقتول، شفاه طفلتها المخنوقة، رائحة ابنتها.

كان المقهى يموج في عالمٍ من الأدخنة، والأمطار تحاصره. شعرت بالاختناق وبرغبةٍ عارمة بالخروج. خرجا إلى الشارع. كانت تخبط بحذائها بُحَيْرات الماء، ليتبعثر رذاذه خلفها، فيبدو في خطواتها شيءٌ من السحر. عبقت الأجواء برائحة الماء. تخيَّلها في سريره بجسدها المصقول وقامتها الطويلة، لكنَّه في لحظة حزن، تذكَّر أنَّها لم تقبل عرضه للزواج. عبثًا، حاول اقتحام قلاعها المحصَّنة. نقر على قلبها بكلماتٍ ترغب سماعها: الاستقرار، الدفء، الأمان. استمالها بخبرته في عالم النساء. يُدرك أنَّها فرصة. امرأةٌ مذعورةٌ في بلادٍ غريبة، لا تستطيع العيش وإعالة ابنتها وحدها. يأتيها الخوف من الاتِّجاهات كافَّةً. تُسيِّجها الأفكار الشائكة حول الاستقرار وتأسيس أسرة. كلَّما أراد أن يبوح لها برغبته في الارتباط بها، فطالعه وجهها أو سمع صوتها، وجد منفذًا إلى الصمت. قال لنفسه: «ماذا ستخسر إنْ ألححتُ عليها؟ لن تخسر شيئًا، ستربحها وتربح تجربةً جديدة، ربَّما لن تعطيك الحياة مثلها». عاد للضغط عليها، أخبرها أنَّه لا يريد العيش وحيدًا، بلا امرأة تؤنسه في بلاد الصقيع. تراءى لها البحر قد تحوَّل غيومَ أدخنةً وغبار. كأنَّ هموم الدنيا فوق رأسها. عيونها تقدح بالحزن. على يمينها «ألف» يجاري خطواتها المتمهِّلة. أحسَّ بشيءٍ احترق داخلها، ثم أخذ بالاتِّساع حتى وصل إلى كلِّ كيانها.

زمَّت شفتيْها طفلةً على أهبَّة البكاء. بعد أنْ قضمت شفتها السفلى، سألته: «لماذا يريدنا الرجال أجسادًا للمتعة؟» رمقته بطرْف عينها، والدموع تنهمر، أنَّها لا ترغب في النظر إليه، ثم

شبكت ذراعيْها على صدرها. الجرح له طعمٌ آخر. الفجوة التي تركها كبيرةٌ وعميقة جدًّا لم تستطع رتقها. لم تنطفئ من الذاكرة تلك الحادثة، على الرَّغم من المسافات التي أخذت تبتعد. كان ردُّه ابتسامةً ماكرة رسمها على وجهه. ابتسامة ذَكَرٍ واثقٍ من تحقيق رغباته. ستتذكَّرها كثيرًا، فيما بعد، هذه الابتسامة. في تلك اللحظة، كانت تأكلها نيران الحيْرة والقلق. وجدت نفسها أمام خياريْن: أن تتزوَّج أو أنْ تظلّ أُمًّا عازبة. لتظلّ امرأةً في نظر العالم لا بدَّ لها من ذَكَر. يدٌ غليظةٌ حمقاء تنزع لباسها الداخليّ، عندها تكون امرأة!

بعد صمتٍ طويل، تحدَّثت بصوتٍ يرشح خوفًا. كان قد ضغط عليها حتى تتكلَّم:

«أريد البدء في حياةٍ جديدة. أنا متعبةٌ ومهزومة، أخاف أن تتركني وحيدةً في منتصف الطريق، فريسةً سهلة للفراق».

صوتها كان يغيب للحظات، فأدرك أنَّ دموعها بدأت بالتساقط. انتابه شعورٌ بالندم، فتدارك الوضع.

«لا تخافي، سأكون معك».

أمسك يدها وقبَّلها. اقترب منها، شعرتْ بأنفاسه، بقيت للحظاتٍ في حضنه، تُصغي لكلماته العذبة، كان يرتِّب عباراته بمهارة عاشق، مرتبكًا، قلبه يخبط بقوَّة، خاف أن ترفضه، ويرجع إلى بيته مهزومًا. لم يبتعد عنها، بقي يلاحقها، يحوم حولها، يُعيد كلامه حول الحبِّ والاستقرار، كلامًا مقتبسًا من الروايات الغراميَّة وأشعار العشَّاق. صاحب لسانٍ طلق. لم يمهلها وقتًا

للتفكير، حاصرها بعناد، رأى عمره يمضي بسرعة، واقفًا في مكانه، غارقًا في أوحال الماضي. ماذا تُفيد الموهبة بعد أنْ خفت بريقها، والشهرة التي تلاشت وسط الفوضى؟

بعد أنْ رحلت بجسدها، تشتهي رحيل فكرها وقلبها عن الماضي. إلى متى ستظلّ أشباحُ الموتى تلاحقها؟ فقدت كلّ شيء، عائلتها الصغيرة، بيتها البسيط، قريتها الجميلة، ولا تريد أنْ تعيش وحيدةً في هذا العالم، من غير رجلٍ تستند إليه، يرافقها بقيَّة العمر. المرأة بحاجةٍ لرفيق. تُعاني من الوحدة. ضُمِّيني، تقول لوسائدها وأغطية سريرها كلّ ليلة. الشوق لعين. حبيسة اللهفة. إنَّها المرَّة الأولى التي تفتح فيها خزانة قلبها، وتعبث في محتوياتها، بعد أنْ أبقتها مغلقةً لسنوات. تأمل في علاقةٍ ناجحة. تشمّ رائحة الرجال الثقيلة، تحسّ بلحاهم الخشنة وشعر صدورهم الغزير.. عالم الرجال ينفذ إليها من جديد. نظرت إلى أصابعه، تخيَّلتها تلمس جسدها العاري. إنَّها امرأةٌ انتظرت كثيرًا ورغباتها ازدادت جموحًا.

الأخبار تصلها من هناك، لا جديد.. الوطن يحترق. اشتغلت في بيوت الناس، احتملت الإهانة. تخاف على ابنتها من الخطف واستغلالها جنسيًّا. تسمع قصصًا من اللاجئين تقشعرّ لها الأبدان. لا تريد أن تدمِّر حياة الطفلة التي لا ذنب لها. لماذا تصرُّ على البقاء وحيدة؟ تذكَّرت حديث إحدى المهاجرات عن امرأةٍ هربت من الجنوب، لأنَّ أباها قتل أختها بلا رحمة، حطَّم رأسها بمطرقة، بعد أن مارست الجنس مع ابن جيرانهم. كانت المهاجرة التي تعرَّفت إليها، لا تتوقَّف عن سرد الحكايات القادمة

من الجنوب، بميْلٍ مازوخيٍّ، يتعاطاها الناس مثل الأفيون، بكلِّ ما فيها من رعب. «موتي في بلاد المتوحِّشين والمتخلِّفين أمثالك» كانوا يقولون لها، «أنتِ من بلاد المتشدِّدين، الوحوش، إنَّهم يقتلون الأطفال، ويغتصبون النساء، ويعبدون إلٰهًا ساديًّا يعشق الدماء. أتيتِ من بلاد الحرب والعنف، حيث يموت البشر بالمجَّان، ارجعي إلى هناك، إلى بلادك أيَّتها الهمجيَّة، إلى الأدغال التي وُلدتِ فيها».

كلّ ما رغبت فيه حياةٌ طبيعيَّة، بلا قتل، بلا خوف، بلا اغتصاب. أنْ تتوقَّف عن الهروب ورحلات اللجوء. أنْ تعيش حياة امرأةٍ عاديَّة، فيكون لها بيتٌ وأولاد يحبُّونها. تريد لقافلة الأوجاع أن تنتهي، هذا النزف اليوميّ، هذا الموت البطيء. اكتفت من حياتها الجهنَّميَّة المرعبة، ومن العالم جنوبه وشماله.

انخرطت في دورات تعلُّم اللغة، وتخلَّت عن ملابسها التقليديَّة، محاولةً العيش مثل أهل البلاد الأصليِّين. أرادت دفن هويَّتها للتماهي مع ثقافة المجتمع، وسَعَتْ إلى أنْ تكون مثل المواطنين الصالحين، فلا تتهرَّب من الضرائب وتخضع للقانون. في الأيَّام الأولى، سحرها مركز المدينة بنظافة شوارعه، وبناياته الشاهقة، وحدائقه الواسعة. كانت تتساءل: لماذا لا نعيش ونأكل وننام مثلهم؟ أدهشها كلّ شيءٍ في المدينة، قبل أن تتعرَّف على حقيقتها القاسية. أدركت أنَّها لن تصير واحدةً منهم مهما حاولت. يرونها غريبةً، مدنَّسةً، همجيَّةً متطفِّلة، لا يمكن أن تصير متحضِّرة في يومٍ من الأيَّام. وطنها الأدغال والصحاري القاحلة، منها هربت وإليها ستعود!

فكَّرت.. وفكَّرت.

جاء الرجل الذي يحارب العالم من أجلها، يُعيد بناء العواطف التي تهدَّمت، يُحدِّثها بكلامٍ حلوٍ لذيذ، ما عادت تسمعه، يدٌ قويَّةٌ تلتقط يدها المرتجفةً عند مفترقات الحياة. فوجئت بمدى شوقه لامرأة، وإسهابه في وصف العلاقة العاطفيَّة التي تجمعهما، وكيف أنَّ العاشقيْن يكمِّلان بعضهما بعضًا. لم تحبّ في حياتها، ولم تعرف رجلًا غير زوجها. الحبّ يبدو لها شيئًا غامضًا لا تفهمه. كان الحديث عن العواطف يُربكها. هذه المرَّة الأولى التي يأتي فيها رجلٌ ويفاتحها بالزواج، لم يؤخذ رأيها فيما مضى، كان الأمر يتمّ دومًا بترتيب الأهل. لا حلَّ سوى الزواج. تريد حائطًا تستند إليه. شجرةً تضع فيها رسائل الغيب. اعتادت أن تعزف أوجاعها دون جمهور. الحياة قاسية، تحتاج رجلًا يساعدها في المصروف، ويحميها من العالم. المتعصِّبون يرونها إرهابيَّة ومتطفِّلة، يتمنُّونها ميِّتة. بعد أشهر من وصولها، اكتشفت أنَّها ليست في بلاد الأحلام، لو أنَّ الحرب تتوقَّف لعادت إلى وطنها. ماذا يمكن لها أنْ تفعل؟ وافقت متوسِّلة: لا تظلمني. بعد أسبوع، كان «ألف» يلفّ ذراعيْه على صدر «3» بقوَّة، يتعرَّقان، تصرخ كجروٍ مذبوح، وهو كمغتصبٍ منتصر. الاغتصاب شعورٌ لا ينفيه الزواج الاضطراريّ.

الفصل الثاني عشر

يمكن تبديلها كإناءٍ مكسور

الليلة الأولى كانت الأسوأ. في فراشهما العريض المغطَّى بالملاءات البيضاء والمحفوف بالوسائد المطرَّزة، ارتجفت «3» من شدَّة الخوف. أحسَّت أنَّها شاةٌ للذبح تُساق إلى مسلخ. ذهبت مستسلمة، لا خيار لها سوى الدخول في سرير زوجها، يجرُّها خاتمٌ رخيصٌ ترتديه. ما إنْ دخلت معه في عتمة السرير حتى أخذت تبكي. شعرت بأصابعه الخشنة تنزلق بين طيَّات جسدها. حاول تقبيلها على رقبتها فابتعدت. شدَّها إليه بقوَّة، فوجدت نفسها محبوسةً في حضنه. أحسَّت جسدها خشبةً جافَّة، لا يتفاعل مع أنفاس زوجها ولمساته. انكمشت، تضاءلت، أخذت الوضع الجنينيّ، اتَّسع الفراغ داخلها، البرد شرَّش في لحمها. أجهشت بصوتٍ عالٍ دون توقُّف. شعرت أنَّها تُغتصب من جديد. سال

عرقٌ باردٌ على ظهرها. قيَّد يديْها وراء ظهرها، وامتطاها من الخلف، ثم ولج رحمها الجافّ بوحشيَّة. كانت منفصلةً عن جسمها كأنَّه لامرأةٍ أخرى. بذلت مجهودًا في الاستلذاذ دون جدوى. لم يكن لديها الرغبة في التمثيل والاستجابة بأيِّ حركاتٍ أو تأوُّهات. كانت أشبه بجثَّةٍ متعفِّنةٍ في سرير. الألم الذي شعرت به كان جزءًا من جَلْد ذاتها، وتكفيرًا لذنوبٍ وهميَّة. عجزها عن ممارسة الحبِّ أفسد حياتها. حاول عشرات المرَّات معاشرتها، إلَّا أنَّها كانت تضع يديْها بين فخذيْها، كمن يحمي قلبه من سهمٍ أخير. وحيدة يعاقبها الجوع بلا رحمة. تريد ولا تستطيع. في الليالي الكانونيَّة لمَّا تُطفئ المصباح وتختبئ تحت الأغطية الثقيلة، يطلب جسدها أشياءَ كثيرة. أشياء لا تفكِّر بفعلها مع الزوج النائم في السرير. حتى المدن الغريبة التي تتباهى بالمثاليَّة تُعاني من الوحدة والظلم. يجرّها إلى غرفة النوم، تتمدَّد مثل دميةٍ جنسيَّةٍ. عندما يعتليها، تشعر بثقل العالم فوقها، تتيبَّس وهي تحته خانقة أنفاسها. كرهت يديْه وشفتيْه اللتي تتناوب على جسدها المنهك ولحمها المُهان.

الفصل الثالث عشر

أفكار عصيَّة على التفسير

ثمَّة أبناءٌ عاقُّون، تلعن أمُّهاتهم الساعة التي ولدتهم فيها، غير أنَّ «3» لعنت طفلتها قبل أن تكبر، وتأخذ فرصتها في العقوق. كانت اللعنة والطفلة مثل ضفيرتيْن. بعد الولادة، ظلَّت مشاعر الأمّ تتأرجح بين الحبِّ والكره. كان عليها أنْ تتحمَّل الفوضى التي تخلقها البنت في حياتها: طلباتِها الكثيرة، صراخَها وبكاءها الحادَّيْن، ألعابها المبعثرة في البيت، ثرثراتها، أسئلتها التي تبدو بلا نهاية. أحيانًا، كانت تضربها وتُحمِّلها مسؤوليَّة مأساتها. وعلى النقيض من ذلك، في بعض الليالي تغنِّي لها قبل النوم، تُسمعها حكايات القرية وأناسها ممسِّدةً على شعرها بحنان. تبلِّلها بالدموع لمَّا تشعر بالحمَّى، وتجلس بجانبها مثل ملاكٍ حارس. تمدُّ إليها يد الدفء، وتسهر على راحتها. تتقوَّى

الأمّ في لحظات الوحدة بابنتها، لا تُغادرها مهما حدث. تكون لها العشّ الدافئ، هي الطائر الذي بلا أجنحة. كان مخيفًا أن تمضي وحيدة. أمٌّ مقهورة تحاول أن تنتشل طفلتها من المأساة، وأنْ تنقذها من زحمة الموت الذي يُحاصرها.

تعرَّضت ابنتها للتنمُّر من زميلاتها. اضطرَّت إلى تغيير المدرسة تلو الأخرى. الأطفال لا يتركون الفتاة في حال سبيلها. يضربونها بالعصيِّ والأدوات الحادَّة وهم يشتمونها بـ «ابنة الزنا». حدث ذلك أكثر من مرَّة. وعندما حاولت، ذات مرَّة، أن تسأل أمَّها عن معنى الكلمة، لم تجد جوابًا غير الدموع.

تسأل البنت أمَّها عمَّا يُثير حيرتها.

ـ «أمِّي لماذا يكرهنا الناس؟»

ـ «لأنَّنا مختلفون؟»

ـ «ألسنا مثلهم؟»

ـ «نحن من بلادٍ أخرى، لم نولد هنا، لونُ بشرتنا مختلف، وكذلك جيناتنا».

لم تعرف الفتاة ما الجينات، وما علاقتها بكره الناس لهم. أصبحت حذرة، خصوصًا بعد أن سمعت بحوادث قتل المهاجرين على أيدي متعصِّبين. لم تيأس من محاولات الاندماج في محيطها العدوانيّ، كانت فتاةً لطيفة، طيِّبة، مسالمة، تختار أكثر الكلمات أناقة، وتتصرَّف بتهذيب.. لكنَّها أدركت بمرور الوقت عبث محاولاتها، فاعتزلت في شرنقتها، واختارت حياة الوحدة.

ـ «أمِّي، لِمَ أراكِ خائفة طوال الوقت؟»

ـ «على المرأة أن تظلّ حذرة، هذا قدرها».

تخاف من أصوات الرياح خارج النوافذ. تخاف عند سماعها وقع خطواتٍ على درج العمارة. تخاف من الغرباء. تخاف من العتمة. تخاف من الرجال. تخاف من العيون التي تراقبها. الخوف سؤالٌ كبيرٌ ظلَّ يخنقها على الدوام. هذا الخوف انتقل بالعدوى إلى ابنتها. مع بداية نضوج جسدها، وخروجه من طور الطفولة، صار مركز اهتمام الرجال المحيطين بها، ومحطّ نظراتهم الشهوانيَّة. العيون تنصبُّ على نهديْها الناميَيْن ومؤخّرتها. صارت تخافهم، تراهم قذرين، يتشمَّمون رائحتها مثل الكلاب. الأمّ تقول لها: «ينبغي للمرأة أن تخاف، أن تحافظ على نفسها، أن تظلّ بعيدةً عن الغرباء»، وصايا كثيرة كان عليها أن تتَّبعها دون اعتراض.

حاولت الفتاة إخفاء ماضيها، وأسرتها، وحكايات البلاد التي هربت منها. كانت تتهرَّب من أسئلتهم: هل تأكلون اللحوم البشريَّة، وتقدِّمون الأضاحي لربٍّ غير مرئيٍّ يأمركم بالصلاة وإشعال الحروب؟ هل أعضاء النساء الجنوبيَّات أكبر حجمًا وأغرب شكلًا؟ تساؤلات فضوليَّة حمقاء، يسمعنها تتردَّد في أحاديث الكبار.

يرون الجنوب أرض الطواطم، والطقوس الدينيَّة الدمويَّة، والأساطير، والجنس الجماعيّ المقدَّس، والشياطين، والغرائز، عالمٌ وثنيٌّ بدائيٌّ، متوحِّش، تعيش فيه شعوبٌ تتغذَّى أدمغتها على الخيال. همجيُّون، غير متحضِّرين، قتلة، لصوص، حيوانات متعطِّشة للدماء. أولاد المهاجرين يحملون جينات أسلافهم، يحافظون على سخونة دمائهم في بلاد الصقيع، ينتمون إلى

حضارةٍ أخرى، بناتهم ذوات الصدور الضخمة، والمؤخّرات الممتلئة، متعطّشات للمضاجعة في الأدغال، لا يعرفن البرودة الجنسيَّة الشماليَّة. كانت هذه الأفكار النمطيَّة تنتشر مثل الفطر في بلادٍ شمسها بلا حرارة، وتعشِّش فيها أفكار التفوُّق العرقيّ.

تسأل البنت أمّها: هل تحبِّينني؟

يُخيفها السؤال. تأخذ الأمّ وقتًا في التفكير، ولا تصل إلى إجابة. لقد خاضت معها البحر، واجتازت الحدود. ألم تهرب بها إلى الشمال لتحميها من الحرب؟ تخاف من حبِّ ابنتها، ومن خروج الوحش الكامن داخلها. تتساءل: لماذا لا أُجيبها كما ينبغي بأمٍّ طيِّبة؟ يا تُرى كم من الوقت سيمرّ قبل أن أسامحها على الذنب الذي لم تقترفه؟ لماذا أُفسد البهجة وأُحيط نفسي بجدرانٍ سميكة؟ مرَّت الأيَّام بسرعة، إلَّا أنَّ علاقة الأمّ بابنتها ظلَّت بين مدٍّ وجزر. لم يكن أحدٌ يعرف عنها شيئًا غير أنَّها ابنة «3». يوم ولدتها كان العالم يختنق تحت طبقةٍ من الجثث، كأنَّ الآلهة قذفت بها وتركتها وحيدة. تصبُّ جامَّ غضبها على ابنتها، على الرَّغم من أنَّها تعرف أنْ لا ذنب لها. تُحمِّلها مسؤوليَّة ترهُّل بطنها بعد الحمل، وتبديد حياتها، وسوء أوضاعها الاقتصاديَّة. تُعاقبها لمجرَّد أنَّها وسَّخت ملابسها، أو رفعت صوتها، أو لم تُطِعْ أوامرها. أرادتها نسخةً طبق الأصل عنها، خوفها من العالم جعلها تُحْكِم الخناق على الطفلة.

عندما نظرت في وجهها، رأت كارثةً جديدة، وجهًا تراجيديًّا بطريقةٍ لا تُصدَّق، وجهًا صغيرًا سينفجر مثل قنبلةٍ موقوتة. كان

الفراغ يتَّسع بينهما، وطرق الحليب تجفّ دون أملٍ بعودته.

في يومٍ من الأيَّام، بينما كانت «3» جالسةً إلى مائدة الفطور، سألتها الفتاة:

ـ أمِّي، لماذا لا تنجبين أخًا ألعب معه؟

ـ عندما تكبرين ستفهمين.

كانت هذه العبارة بمثابة جوابٍ سحريٍّ على كلّ سؤال.

عاشت الفتاة مع والدتها وزوجها في منزلٍ واحد. جهَّزت «3» غرفة ابنتها بما تحتاجه من أثاثٍ بما يتوافق مع حالتهم الاقتصاديَّة. كان فيها سريرٌ صغير، ومكتبةٌ تضمّ كتبًا مصوَّرة، ودببة ملوَّنة، وألوانًا، وكرَّاسات رسم. صارت الغرفة عالم الفتاة الذي تمضي فيه أغلب وقتها. تتأمَّل الشارع من النافذة، وتجلس محدِّقةً في السقف تمارس لعبتها المفضَّلة. اعتادت أن ترسم بسبَّابتها حيوانات: عصافير، قطط، أحصنة، سلاحف. وتتخيَّلها تتحدَّث إلى بعضها بعضًا. شغوفةٌ بعالم الحيوان، تملك موسوعةً كاملة من صور الحيوانات ورسوماتها. لم تعرف كثيرًا من الألعاب. حاولت اختراع ألعاب لا تحتاج إلى الآخرين. الحيوانات وحدها قادرة على التخفيف من شعورها بالوحدة.

انتبهت الأمّ إلى تعلُّق ابنتها بالسلاحف، فأهدتها كرَّاسة رسم فيها سلاحف بأشكالٍ وأحجامٍ مختلفة. كلّ سلحفاةٍ لها اسمٌ خاصّ، ونمط عيشٍ يختلف عن الأخريات. كانت تصنع عالمًا من السلاحف الناطقة.

ـ «أريد سلحفاةً واحدةً فقط. سأعتني بها، أعدكِ».

ـ «نحن لا نستطيع أن نعيل أنفسنا. الحيوانات تحتاج للرعاية والاهتمام».

ذات يوم أهدتها «3» سلحفاةً صغيرة. شعرت الفتاة بفرحةٍ غامرة. سحرتها الصَدَفة التي تغلِّفها مثل كيس حلوى. وضعت السلحفاة في غرفتها، وجهَّزت لها مكانًا للنوم وصحنًا للطعام. أمسكت السلحفاة، قلبتها، مرَّرت أصابعها على الصَدَفة، أدنتها لتسمع أيّ شيءٍ يصدر منها، نظرت إليها عن قرب. ظنَّت أنَّ بوسع السلاحف الكلام، فشرعت تتحدَّث معها:

ـ «ماذا أُسمِّيكِ؟»

لم تجد سوى الصمت.

ـ «هل أنتِ جائعة؟»

لا شيء. انتظرت طوال النهار. كانت تعتني بالسلحفاة، تضع لها الطعام، وتخرجها إلى الشرفة لتستنشق الهواء. في النهاية، ذهبت إلى أمِّها حزينةً تشكو لها.

ـ «أمِّي، يبدو أنَّني أغضبت السلحفاة في شيءٍ ما، إنَّها لا تتكلَّم معي».

ـ «السلاحف لا تتكلَّم مثل البشر. ربَّما يتواصلون بلغة خاصَّة».

شعرت الفتاة بالحزن ولامت نفسها. فشلت في جعل السلحفاة تتكلَّم، هذا يعني أنَّها تعيسة. حبست دموعها. لا تريد للسلحفاة أن تراها حزينة، فتسوء حالتها أكثر. كم تمنَّت لو أنَّها

سلحفاة، لتتكلَّم مع صديقتها الجديدة. ليس لديها أصدقاء في المدرسة. الأولاد المشاغبون لا يتوقَّفون عن إهانتها، لأنَّ شكلها يبدو غريبًا عنهم. في الاستراحات، تجلس تحت الشجرة الوحيدة، تنظر إلى الفتيات يلعبن كرة السلَّة، يضحكن، يتبادلن الشتائم، بينما تفكِّر في قصصٍ غريبة، لا تخطر على بال تلميذة مدرسة. مع الوقت، صارت تعتقد أنَّها مختلفة. الطفلة الوحيدة التي تخلق عوالمَ جديدة. ذات مرَّة، سمعتْ أنَّ الأذكياء وحيدون، في ذلك وجدت عزاءها وسرَّ تفرُّدها. خيالها أضاء عالمها.

تذمَّر «ألِف» من وجود السلحفاة. كان يراها كائنًا غبيًّا يجلب الشؤم والأمراض. الفتاة حرست صديقتها بإخلاص. قالت لنفسها: الكبار قساة القلوب، لا يفهمون شيئًا، ما المشكلة في أنْ يكون لديَّ سلحفاة؟ إنَّها لطيفة، ولا تؤذي أحدًا.

سألت أمّها: لماذا يريد أبي التخلُّص من السلحفاة؟

ـ يعتقد أنَّها تجلب الأمراض وسوء الحظّ.

ـ ماذا سيفعل؟ هل سيطردها من البيت؟

ـ لا أدري. قد يكون ذلك أفضل. إنَّكِ تمضين أغلب الوقت معها، تتحدَّثين إليها كأنَّها تفهمك، تنام إلى جانبكِ، قد تسبِّب لك المرض!

ـ إذا كانت الحيوانات تشعر بالجوع، هذا يعني أنَّها تشعر أيضًا بالحزن؟ ليس لديها أحدٌ غيري. لا يمكن أن تنام في الشارع، قد يهجم عليها حيوانٌ متوحِّشٌ فيؤذيها.

ـ السلاحف تعيش في البرِّيَّة. الصَدَفة تحميها من الأخطار.

ـ لماذا ليس لدينا صَدَفات مثل السلاحف تحمي أجسادنا؟

كان سؤالها مفاجئًا. صمتت للحظات. لم تعرف كيف تُجيبها. فكَّرت: لو كان لديها صَدَفة، لاختبأت داخلها، ولم يتمكَّن ذلك الضابط من اغتصابها. لماذا لا يوجد للأجساد البشريَّة صدفات تحميها من المغتصبين؟ لماذا تخلَّت الطبيعة عن النساء ولم تخلق لهنَّ أيّ أنيابٍ أو مخالب؟ قالت لها: عندما تكبرين، ستفهمين كلّ شيء. «عندما تكبرين»، هذه العبارة التي تتكرَّر على ألسنة الكبار. لا يتوقَّفون عن زجِّها أثناء كلامهم مع الأطفال. لماذا عليها أنْ تصبح في عمر أمِّها لتفهم والدها الذي يريد طرد صديقتها السلحفاة؟ لا تفهم منطق والديْها في النظر إلى الأشياء. حلمت بكوكبٍ تعيش فيه مع السلاحف، حيث لا مكان لأُناسٍ يضربون بعضهم لأتفه الأسباب. ستكون بعيدةً عن زميلاتها اللواتي يسخرن منها طوال الوقت.

ذات يومٍ بعد عودتها من المدرسة، لم تجد السلحفاة. «طردها أبوكِ من المنزل، بعد أن وجدها بين ملابسه». ركضت الفتاة نحو الخارج تنادي عليها، كانت تصرخ وتبكي وتهرول على طول الشارع. لحقت بها أمّها، أمسكت يدها، وسحبتها إلى الداخل. دفنت رأسها في مخدَّة السرير تنتحب بشدَّة. خُيِّل إليها أنَّها فقدت القدرة على الكلام، شعرت أنَّ كلّ شيءٍ فيها تحوَّل إلى غبار.

كيف تشرح وجعها؟ فقدت حبّها الوحيد، صارت ترى

الأشياء بلون الألم. دمعاتها ثقيلة. العالم سجنٌ كبير. سمعت أمَّها تقول كلامًا ما. كان صوتها بعيدًا جدًّا، كأنَّه يأتي من وادٍ سحيق. لا تريد أن تكبر. تكره عالم البالغين. تريد سلحفاتها. ما زالت بنتًا صغيرة، تخاف العتمة ووالدها. أمامها عمرٌ طويلٌ لتفهم ما يدور حولها. «عندما تكبرين ستفهمين»، لا تريد أن تكبر، لأنَّها تخاف من الفهم. يبدو لها أمرًا فظيعًا! فوالدها بالغ، والفهم دفعه إلى التخلُّص من السلحفاة التي تحبُّها. بعد ساعاتٍ من البكاء، فكَّرت في والديْها. ما الذي فعلاه؟ لماذا تخلَّصا من صديقتها الوحيدة؟ شعرت بحزنٍ شديد، لأنَّها فقدت المخلوق الوحيد الذي شاركها عالمها. فوالدها يعاملها بصورةٍ سيِّئة، لا يهتمّ بها، وينادي عليها بألقاب تكرهها: «أنتِ، تعالي هنا»، «غبيَّة مثل أمّك». لا ينتظر من دراستها الكثير، لم يعترف لها بموهبةٍ أو مهارة، ما يهمُّه أن تساعد أمَّها في الأعمال البيتيَّة، وتبتعد عن اللعب مع الفتيان كي لا ينزعوا سروالها الداخليّ، وتلطِّخ سمعته بالعار.

ذات مرَّة، صرخ عليها بعد أنْ تأخَّرت في إحضار كوب ماء، فتجرَّأت رافعةً صوتها، قالت له باكية: لست خادمتك. كان ساعتها سيِّئ المزاج، فانطلقت شياطين غضبه. اقترب منها حانقًا بعينيْن تقدحان شررًا، في حين أخذت تتقلَّص خوفًا. تلبَّسه هَيَجانٌ محموم، صفعها بقوَّةٍ على خدِّها. ترنَّحت وشعرت بالنار تستعرّ في لحمها. «حقير، أكرهك... أكرهك»، توالت الصفعات، وارتفع الصراخ، فدخلت الأمّ مهرولة، تدافع عن ابنتها، أبعدته جانبًا، رأت الدم يسيل من شفتيْها، فحملتها إلى الحمَّام محاوِلةً

وقف النزيف. يومها، اكتشفت الفتاة نوعًا جديدًا من الألم، أدركت أنَّ الفتيات الصغيرات قد يُضربن بلا سبب، وكان هذا موجعًا أكثر من الصفعات.

كلّ ليلةٍ يعود سكرانًا، يدخل إلى غرفة «3»، ثم تسمع صوت صراخٍ مخيف. في الصباح، تخرج أمّها بعيونٍ متورِّمة وكدماتٍ على وجهها. لطالما توسَّلت إليه ألَّا يضربها أمام ابنتها. يهرب من العالم ليمارس قسوته عليها. يظنُّ أنَّ المرأة تخونه، لا يثق بها إذ فقد ثقته في كلِّ شيء.

الفصل الرابع عشر

يتَّضح لها بطريقة غير مفهومة

حين عادت الفتاة من المدرسة ودخلت غرفتها، انتبهت إلى اهتزاز باب خزانتها. كان واضحًا أنَّ شيئًا ما يريد الخروج. ولمَّا اقتربت، سمعت أصوات حركةٍ غريبة، فكَّرت... قد يكون فأرًا أو قطَّة. كيف جاء هذا المخلوق إلى خزانتها؟ ما إنْ فتحت دفَّة الباب حتى خرجت سلحفاةٌ عملاقةٌ بطول نصف متر، صَدَفتها هائلة، ورأسها أكبر من رأس طفل. رفعت السلحفاة الضخمة رأسها. نظرت بعينيْها المدوَّرتيْن الكبيرتيْن إلى الفتاة، وبصوتٍ بشريٍّ واضح قالت لها: أنا السلحفاة التي طردها والدك، لكنِّي أصبحت أكبر حجمًا. صمتت الفتاة من شدَّة الذهول. انعقد لسانها، ولم تقل شيئًا. توقَّفت متجمِّدةً في مكانها مذهولةً ممَّا رأت.

«أنا صديقتك، لِمَ أنت خائفة؟ سمعت أمّك حين قالت لك إنَّ السلاحف لا تتكلَّم مثل البشر. هذا غير صحيح، نحن كائنات ثرثارة».

ظلَّت الفتاة مذهولةً تنظر باستغراب.

«هنا الجوّ بارد. في المرَّة الأخيرة، بحثت عن مكانٍ دافئٍ أنام فيه، فوجدت خزانة والدك. كانت دافئة، لكنَّ ذلك الحاقد، الأنانيّ، ركلني إلى الخارج».

أكملت السلحفاة بوْحها، بدا أنَّها تبكي من فرط الألم.

«ألقاني في الحديقة المجاورة. طرت عشرة أمتارٍ قبل أن أسقط على حجرٍ صلب. تخلخلت صَدَفتي، وشعرت بارتجاجٍ في جسدي. بقيت أبحث عن مكانٍ أختبئ فيه. تعرَّضت لهجمات الكلاب التي كانت تيأس بعد محاولاتٍ طويلةٍ لسحب رأسي أو أحد أطرافي من داخل الصَدَفة، عشت أيَّامًا صعبة».

لم تَرَ في حياتها سلحفاة بهذا الحجم. شعرت أنَّها محظوظة، بعد أنْ عادت السلحفاة إليها، وكما تريد، مخلوقًا ناطقًا. أخيرًا، وجدت من تتحدَّث إليه.

«كيف أصبحتِ بهذا الحجم؟»

«لا أدري. ربَّما أكلت شيئًا ما. نمت نومًا عميقًا، وبعد أنْ استيقظت لاحظت تغييرًا في جسدي. شعرت أنِّي أنظر إلى العالم من الطابق العاشر. كان شعورًا مخيفًا. صرت أسرع، أمشي بسرعة قنفذ».

«كيف وصلتِ إلى هنا؟»

«تسلَّلت ليلة أمس، وأمضيت النهار نائمةً في خزانتك. آسفة، لم أجد طريقةً أخرى. ما رأيكِ أن تجلسي على السرير؟ لا بدَّ من أنَّكِ متعبة. هؤلاء الأولاد المشاغبون ألم يتوقَّفوا عن إزعاجك؟ أُفكِّر في إخافتهم، يبدو حلًّا معقولًا، لن يعودوا إلى إهانتك».

رفضت عرض السلحفاة بإشارةٍ من رأسها.

ـ «هل تتكلَّمين مع أحدٍ غيري؟»

ـ «أنتِ فقط».

ـ «كيف حدث ذلك؟»

ـ «لا أدري، إنَّه شيءٌ غريب، لكنِّي سعيدةٌ بالحديث معك. على كلٍّ حال، لقد أتيت لأحذِّرك».

ـ «ماذا؟»

ـ «احذري والدك. إنَّه شرِّير. سيؤذيك كثيرًا. أعرف ذلك. هل تريدين المساعدة؟ عليك الهرب، سأفعل كلّ ما في وسعي لإنقاذك».

ـ «لا أحبُّه، لكنِّي لا أُفكِّر بالهرب. لن أترك والدتي وحدها. ثم أين سأذهب؟ ليس لديَّ مال، ولا أعرف أحدًا في المدينة».

ـ «لستِ الأولى، ولن تكوني الأخيرة. ألم تسمعي بظاهرة اختفاء الفتيات؟ يهربن من أسرهنَّ، مختفياتٍ عن الأنظار في

ظروفٍ غامضة، دون أن يتركن أثرًا».

ـ «كيف سأعيش وحدي؟»

ـ «بوسعك العمل. ستحصلين على المال، لن تحتاجي أحدًا».

صمتت لتفكّر. نظرت حولها بعيونٍ مرتابة.

أضافت السلحفاة: «هل تعتقدين أنَّكِ في حلم؟ اطمئنّي. أنتِ في الحياة الحقيقيَّة، لا تتوهَّمي شيئًا. تعالي، بإمكانكِ لمس صَدَفتي».

مدَّت الفتاة يدها. مرَّرت أصابعها على الصَدَفة. كانت صلبةً وباردة.

ـ «أنتِ سلحفاة حقيقيَّة».

ابتسمت السلحفاة، وأخذت تهزّ رأسها.

ـ «كيف سأهرب؟»

ـ «الليلة، تحضرين حقيبةً تضعين فيها أغراضك الضروريَّة، وتهربين بعد أن ينام والداكِ».

ـ «أين؟»

ـ «خذي أبعد قطار، وانزلي في المحطَّة الأخيرة».

ـ «هل سترافقينني أمْ سأكون وحدي؟»

ـ «لا أستطيع مرافقتك، سألفت النظر. هل تتخيَّلين ما سيحدث؟ سلحفاةٌ ضخمة تهرول بين الناس في مركز المدينة!»

ـ «ماذا لو أمسكت بي إحدى العصابات؟»

ـ «لا تقلقي. ابتعدي عن التفكير في الأمور السلبيَّة، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام».

أخذت الفتاة تنظر إلى السلحفاة دون أن تقول شيئًا. كانت خائفة لا حماسة في قلبها للهروب، خصوصًا أنَّها بلا خطَّة أو مكان تلجأ إليه. ستكون مغامرةً مجهولة النتائج. مع ذلك، أرادت التخلُّص من حياة البيت التي أصبحت جحيمًا.

تذكَّرت تحذير السلحفاة في بداية تعارفهما.

«لم أفهم لماذا عليّ الحذر؟ هل هناك شيءٌ لا أعرفه؟»

«نعم».

الفصل الخامس عشر

سرٌّ كبيرٌ لكنَّه عاديٌّ جدًّا

كانت متعبة، فأخذت قيلولةً قصيرة، وعندما استيقظت لم تجد السلحفاة. جلست على حافَّة السرير تسرح بأفكارها. لن تهرب، فهي صغيرة، لا تملك المال، والعالم في الخارج أكثر خطورة.

أخبرت زميلاتها في المدرسة أنَّ لديْها صديقة سلحفاة. لمست الحسد والغيرة في كلامهنَّ، حينها، شعرت بالانتقام لنفسها.

ـ «إنَّها تتكلَّم» قالت الفتاة إمعانًا في إثارة حسدهنَّ.

ـ «السلاحف تجلب الأمراض وسوء الحظّ» قالت 13.

ـ «كائنات قبيحة وبطيئة» علَّقت 29.

ـ «سلحفاتي جميلة جدًّا» قالت الفتاة معترضة.

ردَّت 45: إنَّها مخلوقٌ غريب الشكل، يزحف طول الوقت، يختبئ في علبةٍ عظميَّة، ثم إنَّها بطيئة، عديمة النفع.

شعرت الفتاة بالحزن. فما المانع أن يكون لديها سلحفاة؟ لماذا يكره الناس الحيوانات ويحاولون التخلُّص منها؟ لماذا يفكِّرون فقط في المنفعة؟ عند وصولها إلى البيت، فكَّرت أنْ تُخبر أمّها، حينها تذكَّرت ما فعل والدها. ليس لديها أحدٌ تشكو إليه، وحيدةٌ بالكامل. دخلت إلى غرفتها وأقفلت وراءها الباب.

أين اختفت السلحفاة؟

نامت من التعب كعادتها، واستيقظت على حركةٍ في سريرها. كانت السلحفاة تدفع الفتاة لتوقظها.

ـ «مرحبًا».

ـ «أين اختفيتِ؟»

ـ «ليس لي مكانٌ في هذا البيت. أمرُّ فقط لأطمئنَّ عليكِ، فأنا لا أترك أصدقائي».

سالت دمعةٌ من عيْن الفتاة لفرط التأثُّر.

ـ «زميلاتي في المدرسة وصفنكِ بأبشع النعوت. قالوا إنَّك قبيحةٌ وبطيئةٌ تجلبين سوء الحظّ. لقد غضبت كثيرًا يا صديقتي، لكنِّي لم أستطع فعل أيّ شيء».

ـ «البشر يقولون دائمًا أشياءَ تافهة. لا يفكِّرون إلَّا في الأرقام. نحن بالنسبة لهم بضاعةٌ للبيع والشراء، إنَّهم ينسون أنَّ لدينا مشاعر».

كان غريبًا على الفتاة أن تسمع سلحفاةً تتحدَّث عن المشاعر.

ـ «أليس في وسعنا أن نحبّ أشياء بلا سبب؟»

أخذت الفتاة وقتًا في التفكير، ثم سألتها بارتباك:

ـ «من أيِّ كوكبٍ أتيت؟ أرجوكِ، أريد أن أعرف».

ـ «عوالمنا تداخلت. كنتِ تعيشين في عالم البشر، وأنا في عالم السلاحف، صحيح؟ الآن تبدَّلت الأحوال، ستكتسبين تدريجيًّا صفات السلاحف وطريقة تفكيرها، بينما بدأت أكتسب صفاتٍ بشريَّة».

ـ «هل ستصبحين من البشر؟»

ـ «إنَّني أشعر للمرَّة الأولى بالكراهية».

لم تقل الفتاة شيئًا.

ـ «الحيوانات أيضًا لديها مشاعر!»

ـ «وأنا؟» سألت الفتاة.

ـ «سترتعبين مثل سلحفاةٍ مقلوبةٍ على ظهرها».

ـ «لماذا تخيفينني؟ ما تقولينه مجرَّد خيال».

ـ «فقط أُحذِّرك، هذا ما سيحدث. قد يبدو لك الأمر من صنع خيالي، وهمٌ يدور في رأسي، بالفعل بدأتُ أتحوَّل إلى إنسان».

ـ «هل يمكن أن يصبح البشر أشجارًا أو كتبًا أو حيوانات؟»

ـ «صحيح، هناك أشخاص صفاتهم تقترب من طبيعة الكلاب، أو الثعالب، أو الطيور، أو الأشجار، أو الحجارة».

ـ «ما الذي ستفعلينه بعد التحوُّل؟»

ـ «سأمضي معظم وقتي أعبث في العالم».

ـ «أرجوكِ، تحدَّثي بكلامٍ أفهمه. ما اسمك؟»

ـ «ليس لي اسم، ولم يشكِّل غيابه أيَّة مشكلة، كلّ ما أستطيع قوله إنَّني الوسيط، لقد سمعت دعوتكِ».

ـ «كيف كانوا ينادونك في عالم السلاحف؟»

ـ «هيي، أنتِ، يا صغيرة.. وهكذا».

ـ «هل تمانعين إنْ ناديتك 1/ 3 ثلث؟» سألت الفتاة بثقة.

ـ «لا أمانع أبدًا، هذا أفضل من لا شيء».

ـ «كم عمركِ؟ كم عدد إخوتكِ؟ أين كنتِ تعيشين؟»

ـ «غريب! في عالم السلاحف، لا نسأل هذه الأسئلة. على كلٍّ حال أشعر بالجوع، هل لديكِ بعض النباتات؟ لست متطلِّبة، لكنَّني نباتيَّة».

ذهبت الفتاة إلى المطبخ، وأحضرت بعض الخضراوات الطازجة.

ـ «يكفيني عشرون غرامًا من السبانخ، لأحتمل ثقل يوم كامل، السلاحف تحبّ أكل السبانخ، وتُجيد العمليَّات الحسابيَّة البسيطة، هل تعرفين ذلك؟»

هزَّت الفتاة رأسها.

أضافت 1/ 3: «ثمَّة من يجد متعةً في تعذيب السلاحف، وتحطيم صَدَفتها. رأيت ذات مرَّةٍ شخصًا شرِّيرًا يُمسك سلحفاةً صغيرة يضرب جسدها بحجرٍ صلب، أمرٌ مؤلمٌ وفظيع، لا أستطيع نسيان ما حدث. كان يقول أشياء غريبة من قبيل: الذي يزحف لا يطير... صَدَفات السلاحف يجب أن تتحوَّل إلى طحين. هذا المنحرف كان يستمتع بتعذيبها. نحن مخلوقاتٌ ضعيفة، ليس لدينا وسائل دفاعيَّة غير الصَدَفة التي نختبئ داخلها».

طأطأت الفتاة رأسها صامتة، بينما واصلت السلحفاة حديثها.

ـ «يرانا البعض كائناتٍ خاملة، لا تفعل شيئًا غير المشي بين الأعشاب، والاختباء تحت الصخور. يستسهل البشر حبسنا في البيوت والأقفاص، يلعب الأطفال بنا حتى نموت من الإرهاق. لست محظوظةً بما فيه الكفاية، فقد وقعت بين يديْ والدكِ، لكنَّ الوضع هنا أفضل من الخارج. هل تمانعين لو بقيت؟»

ـ «حسنًا، ليس لديَّ أصدقاء. عادةً أقضي وقتي في الغرفة، بوسعكِ البقاء».

ـ «الخارج مليءٌ بالأشرار، وهذا الرجل خطير، سيجلب لنا كثيرًا من المشاكل، ابقي بعيدةً عنه».

ـ «لا أفهم ما يحدث، لكنَّني أشعر بالطمأنينة معك».

ـ «أين سأنام؟» سألت السلحفاة.

ـ «هناك في خزانتي، سأرتِّب لك سريرًا».

أحضرت الفتاة شرشفًا وبطّانيَّة، وضعتهما فوق دُرْج الخزانة السفليّ، بعد أن أزاحت ملابسها. تسلَّقت السلحفاة الدُّرج، واستلقت هناك.

والدي يسألني دائمًا: «ماذا ستصبحين في المستقبل؟ أكره هذا «المستقبل»، ويُضيف، تعلَّمي شيئًا يجلب لكِ المال. عندما يراني أرسم أو أقرأ كتابًا يستهزئ بي، لأنَّها أشياء عديمة الفائدة. تقول لنا معلِّمة الرياضيات إنَّ الأرقام أهمّ من الهواء، ترفض أن نأخذ حصص رسمٍ أو كتابةٍ أو رقص، بحجَّة أنَّها أشياء لا نحتاجها».

ـ «هل تريدين أن أعلِّمك الرسم؟»

ـ «لم أكن أعرف أنَّكِ أيضًا رسَّامة. سلحفاةٌ متعدِّدة المواهب!»

بدأت السلحفاة تعلِّمها كيفيَّة التعبير عن الأفكار عبر الرسم. في تجربتها الأولى، رسمت الفتاة والديْها: الأب طويلٌ أشبه بخطٍّ مستقيم، بينما الأمّ قصيرةٌ ومتكوِّرةٌ على نفسها، تبدو من بعيدٍ مثل نقطة، وكلاهما يقفان في كوكبيْن مختلفيْن.

صارت تمضي أوقاتها في الرسم. تخربش على الدفاتر والحيطان. أثار تعلُّق الفتاة بالرسم غضب والدها. عندما يراها منهمكةً بين الدفاتر، كان يقول لها الكلام نفسه حول عبثيَّة ما تقوم به. واجهت ازدراء والدها بالصمت. تهزّ رأسها مواصلةً رسمها. لم يكن هناك أيَّة عاطفةٍ في علاقتهما. قرَّرت ألَّا تتنازل

عن خربشاتها مهما كلَّف الثمن. إنَّها طريقتها الوحيدة لإعادة صياغة العالم، والتعبير عن هويَّتها.

في عالمها الجديد، تشعر أنَّها خلَّاقةٌ متمرِّدة، أمَّا خارجه فهي بنتٌ مهذَّبة ومطيعة. شعرت بالحرِّيَّة، أدركت الفرق بين العالميْن. حين ترسم تشعر أنَّ روحها متحرِّرة من القيود. أمنياتها ليست كثيرة. تريد والديْن متفاهمَيْن يحبَّانها، وأصدقاءً تلعب معهم.

لا تعرف ما هو الحزن، أو كيف يشرِّش في الروح.. لكنَّها تشعر أنَّها طائرٌ بلا أجنحة محبوسٌ في قفص.

الفصل السادس عشر

غزو صامت غير ملحوظ

كانت الفتاة ترى والديْها مخلوقيْن غريبيْن، لغزيْن عصيَّيْن على الحلِّ، صامتيْن ومتفجِّريْن بالغضب. يجلسان في مكانٍ قصيٍّ يُصدران الأوامر، «كوني فتاةً مهذَّبة، واسمعي كلام ماما، الصغار لا يناقشون أثناء حضور الكبار» هذا كلّ ما كانت تسمعه، عندما تُبدي رأيًا أو اعتراضًا. فهمت مبكرًا أنَّ سبيلها إلى النجاة هو التخفيف من أثرهما في حياتها، ثم لعب دور الابنة البارَّة التي كانت تتقنه جيِّدًا. الصدمات ظلَّت تتوالى، ليزداد عالم الفتاة مأساويَّة. في أحد الأيَّام، بينما كانت الأمّ منهمكةً في كيِّ قمصان وسراويل «ألف»، طرقت الفتاة الباب. كانت تحمل بيدها صورةً مأخوذةً لأمِّها في حفل زفاف، وإلى جانبها يقف رجلٌ غريبٌ يرتدي بدلةً سوداء. لا شكَّ أنَّه حفل زواجهما، يضحكان

وحولهما أشخاصٌ مبتسمون ينظرون إلى الكاميرا.

نظرت الفتاة إلى أمِّها للحظات، قبل أن تشير بإصبعها إلى الصورة: من هذا؟ أتعرفينه؟

ـ أخي في حفل زفاف أحد الأقارب.

ـ لم تُخبريني أنَّ لك أخًا.

لم تستطع الفتاة أن تُخرج الشكّ من رأسها. أحسَّت بالقلق، ظلَّت ليالي طويلة تفكِّر في الصورة، تتلهَّف لمعرفة سرِّها. حبكت القصَّة تلو القصَّة إلى أنْ جاء ذلك المساء، حين بدأت الفتاة تشكو والدها الذي يأتي مخمورًا في آخر الليل، ويحاول فتح باب غرفتها. كانت الأمّ غاضبة، ويائسة، تمرُّ في أوقاتٍ عصيبة.

ـ لماذا أبي رجلٌ سيِّئ؟ أنا أخجل منه. لماذا تزوَّجتِه؟ هل أنتِ غبيَّة؟

كانت الفتاة قد تفوَّهت للمرَّة الأولى بهذه الكلمات. شلَّ الذهول أمّها التي نظرت إلى ابنتها بنظراتٍ بلهاء، قبل أنْ تُدرك ما حدث. أمسكت الفتاة من شعرها بهستيريَّة، قرَّبتها، صفعتها، وصرخت في أذنها بصوتٍ مفجوع: إنَّه ليس أباك الحقيقيّ، أنتِ بنت زنا. هكذا بلا رأفة، ألقت الحقيقة في وجهها، مهتاجة، بلا اكتراث. كانت لحظةً تكسَّر فيها الوقت... وعاد إلى واقعة الاغتصاب. أبدت الفتاة وجهًا مذعورًا، وانكمشت على نفسها جاهشةً بالبكاء. كانت خائفةً من الأمّ التي جنَّت، وصرخت، وتحوَّلت إلى كائنٍ مخيف. ما لبثت الأمّ أنْ ندمت على ما فعلته، فاقتربت من البنت وحضنتها. عانقتها بذراعيْن حانيتيْن، ومرَّرت

يدها على شعر الصغيرة، ثم أخذت تمسح دموعها وهي تسرد حكاية الاغتصاب من ضابط الجيش أثناء الحرب الأهليَّة.

حينها، فهمت الفتاة كلّ شيء، وأدركت أجوبة الأسئلة الغامضة التي دارت في رأسها. أحسَّت بالدوار، وشعورٌ يدفعها إلى التقيُّؤ، ورغبةٌ في أنْ تقتل نفسها، غير أنَّها لم تفعل شيئًا من ذلك. حاولت الأمّ أن تحضن ابنتها التي أبعدتها بعنف، كانت تنظر إلى الجدار المقابل صامتة، وصرخت: لِمَ لم تُخبريني منذ البداية؟ «كنتِ صغيرة، وما زلتِ، ليتني لم أُخبرك». ركضت الفتاة إلى غرفتها، وأغلقت وراءها الباب. وحيدتان، كلاهما في قطبَي العالم، ولا جسر يربط بينهما. سمعت الفتاة خطوات أمِّها تتوقَّف عند الباب. بعد لحظات، بدأت في قرعه، فأخذت الفتاة بالارتجاف. «افتحي يا ابنتي، أرجوكِ» راحت الأمّ ترجو ابنتها منتحبة. لا أحد في البيت غيرهما. المدينة خالية إلَّا منهما. الأمّ وراء الباب، لا يصل غير صوتها، ظلَّت في الخارج، والفتاة منزوية متقلِّصة في سريرها.

مقطوعتان من شجرة. مقطوعتان من العالم. أرادت مغادرة السرير وفتح باب الغرفة، لتتشبَّث بساق أمّها، تعترف أنَّها فتاة سيِّئة، تبكي بحرارة، تتأسَّف نادمةً لما قالته، لكنَّها ظلَّت جامدة، رأسها في المخدَّة، وعيونها فارغة، فارغة جدًّا. كانت ليلةً في غاية الحزن. لم تشعر كم مضى من الوقت وهي تبكي مفجوعة، ولا كيف غرقت في نوم عميق، لتستيقظ صباح اليوم التالي على صراخ «ألف» وهو يقولُ لأمِّها: يا عاهرة سأذبحك. من سريرها، دون أن تتحرَّك، رأت أمَّها تُضرب بعنف. رأتها تتلاشى خلف

الكدمات والرضوض والكسور، حينها فهمت أنَّ حياتها آخذة في الانطفاء!

هذا اللقاء السرياليّ مع سلحفاةٍ ناطقة، غيَّر مسار حياتها إلى الأبد. كأنَّها دخلت إلى معملٍ إلٰهيٍّ عظيم، فخرجت منه كائنًا آخر. كيف استطاعت التحدُّث إلى السلحفاة؟ هذه تجربتها الأولى في اقتناء هذا النوع من الحيوانات، وتكوين علاقة صداقةٍ معها؛ قبل ذلك، كانت تصادف سلاحف حول منزلها، فتراقب حركاتها، وتلاعبها. لطالما أحسَّت بقدرة السلاحف على فهمها، حين تنظر في عينيْها تتراسل معها بلغةٍ صامتة، لا أحد يستطيع فكَّ شيفراتها. تتقن السلحفاة اللغة صرفًا ونحوًا، مولعةً بالكلام، ونادرًا ما تتوقَّف عن الثرثرة، يبدو لمن يستمع إليها أنَّها بذلت جهدًا كبيرًا في التعلُّم، لا بدَّ من أنَّها عشقت القراءة منذ ولادتها.

دخلت السلحفاة إلى عالم الفتاة، وبسهولةٍ حازت على انتباهها. لم تكن الفتاة بحاجةٍ إلى التصرُّف بلباقةٍ وانضباط، وجدت نفسها تستمتع بأحاديث السلحفاة، ممَّا جعلها تفكِّر بمزيدٍ من الأسئلة، وتبحث في داخلها عن الجرأة المطمورة تحت أطنان المحاذير. لم يسبق للسلحفاة أن تحدَّثت إلى إنسان، خاصمت عالم البشر انطلاقًا من موقفٍ فلسفيّ: الإنسان أكثر الكائنات تدميرًا. فضَّلت العيش في البراري، ومواجهة قسوة الطبيعة، وتوحُّش الحيوانات على العيش بين البشر. وجدت الفتاة روحًا معذَّبةً ومسحوقةً من العالم، وهي ضجرت من الوحدة، كلَّما مرَّت عليها الأيَّام اكتشفت أنَّها أكثر رعبًا.

مجرَّد قفزةٍ في المجهول، علاقة تربطها مع مخلوقٍ من خارج جنسها، لا تدري كيف أتتها هذه الشجاعة! ربَّما ليس هناك ما تخسره، أو أنَّها الوحدة! هذا السؤال الكبير الذي بلا جواب، والحياة ليست أكثر من مقامرة. هكذا بدأت الصداقة بين بنتٍ وسلحفاة. أثبتت الفتاة لنفسها أنَّ الحبّ موجود، وثمَّة مكانٌ في هذا العالم يُشعرها بالأمان، ثم إنَّها وجدت من تتحدَّث إليه، ويؤنسها في أيَّام الضجر. أمَّا السلحفاة فقد كانت تبحث عن الألفة في عالمٍ غير عالمها، للأسباب الأسريَّة ذاتها، والفتاة منحتها ما تحتاجه من حماية. لم تكن علاقتهما بعيدةً عن المخاطر، فقد ربط القدر مصيرهما، وأصبح من الصعب انفكاك إحداهما عن الأخرى.

كان على السلحفاة أنْ تكتشف عالمها الجديد، وأنْ تفهم قوانينه وعاداته، لاحظت أنَّ عليها أنْ ترفع رأسها عند الحديث إلى الفتاة، كما لفت انتباهها المفارقة بين السرعة والبطء، فقد كانت شديدة البطء بالتفكير في أحداث العالم، بينما بدت الفتاة متهوِّرة، تبني تصوُّراتها على انفعالاتٍ لحظيَّة. لديها ثقةٌ في حدسها، استطاعت النجاة من الأهوال والأقدار السيِّئة أكثر من مرَّة، مع مرور الوقت، طوَّرت بوصلتها الخفيَّة وأجهزة إنذارها. تشمّ رائحة الخطر من بعيد، فعالمها لم يكن مثيرًا للاطمئنان، من بين أخواتها هي الوحيدة التي نجت من التلوُّث والأمراض والصيَّادين وسرقة البيض. السلاحف توشك على الانقراض مثل آلاف الحيوانات المنقرضة، تشعر أنَّ نهايتها اقتربت. تعطَّف الحظّ بالسلحفاة، وأبقاها في العالم، أهي حقيقيَّة أم مجرَّد وهم؟

هذا ما كانت تفكِّر فيه الفتاة، لأنَّها على الرَّغم من غرقها في القصص المصوَّرة حيث الحيوانات تتحدَّث، إلَّا أنَّها كانت تشكُّ بوجودها في العالم الحقيقيّ. لكنَّ هذا الحيوان الذي تنظر إليه حقيقيّ، بالصَدَفة الكبيرة التي يحملها على ظهره.

ترسم 1/ 3 السلاحف الأخرى بأحجامها المختلفة. أوَّل ما رسمت صَدَفة ذهبيَّة، لأنَّها أكثر الأشياء التصاقًا بالسلحفاة، تحميها من قسوة العالم الخارجيّ، هذا الدرع الدفاعيّ الوحيد لدى السلاحف. لا تستطيع السلحفاة مغادرة صَدَفتها؛ وخلعها يؤدِّي إلى كسر ظهرها. هذه العلاقة بين السلحفاة وصَدَفتها كانت بؤرة انشغال 1/ 3، ماذا تعني الصَدَفة؟ ماذا ترمز في الحياة؟ لاحظت أنَّ الصَدَفة مستديرة، تحتوي خطوطًا منحنية ودائريَّة. كانت تتأمَّل طويلًا هذه الخطوط، تفكِّر في دلالاتها، خاصَّةً الفرق بين الخطّ المستقيم والخطّ المنحني. أصبحت أكثر ملاحظة للأشياء الدائريَّة في العالم، ومع مرور الوقت صارت مهووسةً برسم الخطوط المنحنية، فالخطّ قد يكون بدايةً أو نهايةً، أو حافَّةً، أو الحدِّ الفاصل بين متناقضيْن، أو إطارًا لفراغ، ثم إطارًا لفراغ أكبر. أمَّا الفتاة فقد تحمَّست للرسم، وهذا النزوع إلى الفنّ لم يكن عابرًا، إنَّما خيارًا وجوديًّا، جعلها تنظر إلى العالم بطريقةٍ مختلفة. اعتادت أنْ تجلس ساعاتٍ لتخربش في دفاترها، وأحيانًا كانت تنام واضعةً رأسها فوق ما أنجزت، لتصحو على رائحة الألوان.

ذات مرَّة، ولمَّا كانت ترسم، تخيَّلت ركامًا من وجوهٍ بشريَّة بلا ملامح، فتوقَّفت قليلًا تتأمَّل الصورة الطازجة في رأسها، ثم

أمسكت بقلم رصاص، وبدأت الرسم. صباح اليوم التالي، عرضت رسمتها على مديرة المدرسة.

«إنَّها شجرةٌ عاديَّة، افعلي شيئًا يعود عليك بالنفع».

كانت لوحتها رسمتيْن في واحدة. وجوهٌ متلاصقة كأنَّها شجرة. يومها، فهمت أنَّ الكبار ينظرون إلى الأشياء من زاويةٍ واحدة، بينما الفنَّان مثل النحلة يحوم حول الفكرة أو الشيء من الجهات كلّها، مواظبًا على تأمُّلها بلا ملل. توقَّفت عن عرض لوحاتها، أو تقديم أيِّ توضيحات. صارت أكثر صمتًا، والألوان صرخاتها. هكذا عاشت وحيدة، لا تستمع إلَّا إلى كلام السلحفاة، ولا تنفِّذ غير طلباتها.

ـ «ارسمي طائرًا».

كانت الفتاة مستغرقةً في أحلام يقظتها، فانتفضت، وتحرَّكت نحو الألوان. رسمت بجنونٍ كأنَّ قوَّةً خفيَّةً تحقنها بالإلهام. عندما انتهت، نظرت إلى رسمتها، فذُهلت حين رأت عشًّا كبير الحجم.

ـ «هذا عشّ، وليس طائرًا. إذا قلت لك ارسمي إنسانًا فهل ترسمين بيتًا؟ أو حصانًا فترسمين إسطبلًا؟ أعيدي الرسم»، قالت السلحفاة.

وعادت الفتاة تحاول رسم طيرها، فلم تنجح.

ـ «ارسميه في ذهنكِ أوَّلًا، ينبغي للفكرة أن تولد في الرأس، قبل أن تجد مكانها في الواقع».

هذه المرَّة، رسمت شعلةَ نارٍ لها رأس طائر.

ـ «شيءٌ غريب» قالت الفتاة ضاحكة.

«حاولي أن ترسمي عالمًا مقلوبًا. العالم كتاب أسرارٍ غامضة، مكبوت ومتكتِّم، بحاجة إلى أشخاصٍ يرونه بطريقةٍ مختلفة، عبر الخيال المتَّقد»، هزَّت الفتاة رأسها بِحَيْرة دلالةً على عدم الفهم، ونظرت إلى السلحفاة بعينيْن فارغتيْن، فأمسكت السلحفاة قلم رصاص، ورسمت دجاجةً تلد جروًا له جناحان، ثم رسمت كلبًا يبيض في عشٍّ فوق أغصان شجرة. عندما شاهدت الفتاة الرسومات، أشرق وجهها من شدَّة الإعجاب، سحرتها الغرابة في رؤية الأشياء خلاف ما ينبغي أن تكون عليه. تخيَّلت المياه تحترق، والطيور تبتلع فِيَلة، والغزلان تطارد نمورًا، والأسماك تطير، والنسور تزحف، والخيول ترسم، والقردة تغنِّي، والغربان تروي الحكايات، والحمام يقرض الشعر، والببغاوات تتقن اللغة، والبوم يعلِّم التاريخ، والبشر برؤوسٍ حيوانيَّة، والحيوانات بأجسادٍ بشريَّة، وكائناتٍ برأسيْن وجسدٍ واحد، وأخرى برأسٍ واحدٍ وجسديْن.

خيَّم الصمت برهةً من الوقت، قبل أن تقول السلحفاة بهدوء: «قد يكون بوسعنا اكتشاف الحقيقة عبر الصور القبيحة أكثر من الصور الجميلة، فالبناء في الهدم، والجمال في التشويه، والفكاهة في البسيط، والسرّ في الفظاعة»، ثم صاحت بصوتٍ مرتفع: «تخيَّلي، تخيَّلي، فالعقل والمخيِّلة توأمان».

الفصل السابع عشر

أشياء عظيمة تحدث في العالم

اعتادت الفتاة الجلوس في الحديقة، تراقب العشب الطويل تحت قدميْها، بدا لها سجَّادةً خضراء سحريَّة. كانت فخورةً بقدرتها على توقُّع حركة الحشرات، تلاحق بعينيْها الزجاجيَّتيْن الكائنات الملتصقة بالتراب، والمحلِّقة في الهواء على علوٍّ منخفض. لاحظت نحلةً تتنقَّل بين تويجات الزهور، ترفرف بأجنحتها الشفَّافة، ترتفع، لتحطّ بعد لحظات، في حركةٍ يمكن التنبُّؤ بها. الأشياء مبعثرةٌ على السور، عُلِّقت مناشف، وألعاب، وثياب، وزرافاتٌ قابلة للنفخ، وخرطوم ماء، ودلو بلاستيكيّ.

انكفأت الفتاة إلى نفسها، تراقب بصمت بعيدًا في مكانٍ أعمق داخلها. الصمت عنكبوتٌ يتسلَّق السور، ويختبئ في الزوايا العفنة. عملت مكنسةٌ رهيبةٌ على تنظيف ذاكرتها من الكلمات.

بخفَّةٍ وبطءٍ، انسحبت 9 من العالم. في لحظات مراقبتها للحديقة، كان شيءٌ حارٌّ ينشط داخلها، ينتشر في دمها متوهِّجًا، توَّاقًا للسيطرة بالدهشة. أسرارٌ متوحِّشةٌ تُطلّ من عينيْها، لكنَّها لا تتحوَّل أبدًا إلى كلمات.

تجلس ساعةً تقريبًا، تُعِدّ الزهور، وتتعرَّف إلى أنواع الحشرات، ملاحقةً التفاصيل والأشياء الصغيرة التي لا ينتبه لها أحد. لم يعد يسأل عن سبب صمتها، لأنَّه دُفن بعيدًا، ولم يبقَ غير أثره في حياتها. نادرًا ما يلاحظ وجودها أو اختفاؤها، تنسلّ بهدوءٍ على رؤوس أصابعها بخفَّةٍ متناهية. تركت السلحفاة وراءها سورًا من الصمت ضرب بأساساته حول عالم الفتاة، امتدَّ سريعًا في كلِّ شيء، وفي كلِّ مكان، وفي كلِّ سؤال: *كيف تموت السلاحف الصغيرة؟ أين تذهب في الشتاء حين ينهمر المطر بغزارة؟ أين تختفي؟*

أخذت تلاحق النحلة التي تحوم فوق الأزهار مكوِّنةً خارطة طرقٍ معقَّدة. لم تعرف من أين انبثقت تلك الطاقة المكبوتة في ملاحقةٍ هستيريَّةٍ للنحلة. وفي الجوِّ، كانت تفوح رائحة ثيابٍ مغسولة، وقططٍ، وخراءِ كلاب، وترابٍ رطب، صارت أكثر تعلُّقًا بالتفاصيل. كلَّما اكتشفت الأشياء متناهية الصغر، أحبَّت العالم، ليس عالم الكبار، إنَّما عالم الحشرات والحيوانات التي لا ينتبه لها البالغون. عندما يراها «ألف» تنبش بين الأعشاب، ملاحقة الحشرات بهَوَس، كان يقول لها: «توقَّفي عن البحث مثل دجاجة، ارفعي ظهرك، انظري إلى أعلى، وإلَّا ستظلِّين صغيرة، سيتقلَّص حجمك وتصبحين نملةً وتأكلك الدجاجات السمينة».

عندها كانت الفتاة تتخيَّل نفسها نملة، تلاحقها كتيبةٌ من الدجاجات. مع الوقت، أدركت أنَّ خيالاتها تكبر مع عمرها. كلّ عام يأتي وخيالاته معه. قياساتٌ مختلفة. كلماته كانت تتحوَّل إلى كائناتٍ تمشي أو تطير أو تزحف، يلفظها من بين فراغات أسنانه، لتطاردها في جميع الأوقات.

بعد ثلاثة أيَّام من تلك الملاحقة المحمومة للنحلة، فتحت الفتاة الخزانة، فوجدت 1/ 3 مستلقيةً في سكون، تنظر إلى الفراغ، تمطَّت مادَّةً ذراعيْها في الهواء، وقد غطَّى جسدها النحيف جلدٌ بشريّ، واستطالت قامتها، وضمرت صَدَفتها حتى أصبحت بحجم خوذة.

كانت غريبة المظهر، ترتدي ملابس سوداء، تنظر حولها بنظراتٍ حادَّة.

رأت الفتاة الأمر بعينيْها، لم يكن وهمًا أو شعوذة.

همست السلحفاة: «العالم خزانةٌ كبيرة».

«ما معنى ذلك؟»

«إنَّنا نُمارس التمويه لنُخفي حقيقتنا، نعيش في خزانة الأكاذيب، علينا الخروج من الخزانة، والتمرُّد على قوانينها».

«لا أفهم شيئًا».

«ستفهمين ما يفعله الخوف فينا، وكيف أنَّه قادرٌ على تدميرنا. الخوف من العالم، هذا الوهم الذي يحتلّ رؤوسنا».

«ما العالم؟»

«الإلٰه الذي لا يعترف بتجاربنا الفرديَّة».

«تتحدَّثين عن أشياءَ غريبة، لكنَّها أثَّرت فيّ».

«المهمّ أن تظلّ أقدامنا ثابتة، ونحاول القفز خارج الخزانة في الوقت المناسب».

أشارت السلحفاة إلى أحد جدران الغرفة قائلةً: إنَّه أبيض ونظيف، هذا يستفزّني. الرسَّام الحقيقيّ يلطِّخ كلّ شيءٍ بالألوان.

«سيغضب أَلِف»

«لا بدَّ لنا من توسيخ الجدار».

«لماذا؟»

«الأشياء المرتَّبة تُثير الريبة».

ركضت 1/ 3 إلى علب الألوان. رسمت نافذةً بإطارٍ أسود تُطلُّ على بحرٍ أزرق وغيوم. داخل النافذة نافذةٌ أخرى أصغر حجمًا، داخلها نافذةٌ أصغر، وتظلّ النوافذ تتوالد حتى تلتقي في نقطةٍ واحدة. تقدَّمت الفتاة ووقفت أمام النوافذ. كان المشهد مألوفًا كأنَّه انبثق من ذاكرتها، والهواء القادم من البحر أنعش روحها. «ما أراه حقيقيّ»، همست لنفسها واندمجت فيما تراه. واصلت الفتاة التحديق في اللوحة المرسومة على الجدار، دون يأسٍ أو شعورٍ بالتعب. كان «أَلِف» عندما يفتح عليها باب الغرفة، يجدها متجمِّدةً في السرير، تنظر إلى بياض الجدار بعينيْن فارغتيْن. الجدران تستعصي على الفهم. تبكي بصمت. يخنقها الحنين للشمس. ساعة حائط. انكسر الوقت. واصلي النظر، لا

تتوقَّفي عن التأمُّل. تسلَّحي بتركيزٍ مكثَّف. ابقِ عينيْك مفتوحتيْن على كلِّ شيء. في النهاية، ستفهمين، كلّ ما تحتاجين إليه الصفاء الذهنيّ. واصلي... واصلي. حدِّقي بعيْن خيالك، واغمضي عينيْك عمَّا سواها. لن تدخلي عبر النوافذ إلَّا بعد أن تندمجي بروحك. عليكِ أن تمنحيها كلّك، لتمنحكِ بعضها، لا تفكِّري في العالم. إنَّه محشور أمامك داخل إطارٍ أسود. حدِّقي في النوافذ مثل عاشقةٍ متلهِّفة، برغبةٍ محمومة، وانتظري بكامل يقينك، إنَّ الدخول لن يعقبه خروج، سيكون أبديًّا بلا أملٍ في الرجوع. تفكِّرين: هل هذا دخولٌ أم خروج؟ ارمي الحسابات البائسة، والأفكار المشتَّتة. واصلي التحديق في خلاصك الوحيد. رويدًا رويدًا ستتحرَّك الصخرة، لتنزلقي إلى الداخل / الخارج. المربَّع الذي يتوالد في مربَّعاتٍ أصغر، بزواياه الحادَّة الثابتة، يوحي باستقرارٍ بارد.. طاولةٌ وحيدة في مسرحٍ فارغ، رقعةُ شطرنج، جدارُ زنزانة.

عينان متلهِّفتان، وخيالٌ منفلت، وقلبٌ جامح، وعقلٌ متيقِّظ يرصد، يحلِّل، يفكِّك، يدرس. كانت تحسّ العالم قد تحوَّل إلى قطٍّ وديع، يجلس بجانب قدميْها، بعد أن أسلم نفسه لها، فامتلأت بالنشوة. الرغبة في التأمُّل لفترةٍ طويلة، دون توقُّف، كان من المستحيل كبحها، لأنَّها كانت أقوى الرغبات التي عاشتها على الإطلاق. راحت اللوحة تجذبها، تُقيِّدها، تأسرها يومًا بعد آخر، استسلمت منقادةً إلى ماهيَّةٍ غريبة، بهشاشة حيوانٍ صغير يتعثَّر. بطيش مراهقةٍ في سرير عجوز، بذهول المراقِب، وتلهُّف الممارِس. عناقٌ غامضٌ بين متناقضيْن يبعث في المرء طاقة

التجدُّد. الفتاة واللوحة مندمجتان إلى أقصى الحدود في مشهدٍ طقوسيّ.

تحوَّلت الفتاة إلى شبح، بملامحَ قاتمة. شكلٌ تجريديّ رسمه فنَّان مأزوم. جسدٌ هلاميٌّ قد يتلاشى في أيَّة لحظة. أخلصت للألوان، ذلك التعلُّق الثريّ بالتخيُّل، كما قالت لها السلحفاة، الفنّ حصيلة مناخٍ نفسيّ.. رغبةٌ محمومة، ليس مجرَّد تدريبات. انتفت مشاعر الإحساس بالعالم، والحاجة إلى الدفء الاجتماعيّ، والميثولوجيا، والتفكير الدنيويّ، ونداءات الجسد، وإغراءات اللعب الغريزيّ، والميل الطبيعيّ إلى اللهو. تلاشى كلّ ما يمكن أن يكون بؤرة تشتُّت، بعد أن صارت منذورةً للمخيِّلة الصافية.

وقعت الفتاة تحت تأثير سرٍّ غامض، وسحرٍ لا يقاوَم. لم يكن الخارج إلَّا الداخل الذي لا بدَّ من التوغُّل فيه، فثنائيَّة الداخل الخارج تدفَّقت مثل تيَّارٍ خفيٍّ في قلبها. أحسَّت بطاقةٍ إشراقيَّةٍ تفيض في أعماقها، تندفع باتِّجاه اللامتناهي. تمكَّنت الفتاة من اجتياز قشرة الوجود الصلبة التي تغلِّف الأشياء، والولوج ببطءٍ إلى الباطن. تمزيق الحجاب، بالتأمُّل العميق، عن عالمٍ سحريٍّ: مزيج آلهةٍ وشياطين.

السلحفاة، أكانت حقًّا موجودة في المكان؟ ألم تختلق الأمر في مخيِّلتها؟ من أين جاءت؟ ليست تدري. كانت حقيقيَّة، رأتها وسمعتها، أصغت إلى عباراتها الشاعريَّة وتأمُّلاتها الفلسفيَّة. انبثقت من العدم، وشيئًا فشيئًا ملأت عالمها. منذ البداية، أبدت

السلحفاة احترامًا وتودُّدًا، لكنَّ القلق تسرَّب إلى قلب الفتاة ولم يبرح مكانه. مخلوقٌ غريب، في وقتٍ قصير، صار أقرب المخلوقات إليها، كيف لا تتوجَّس خيفة؟ مشاعر ملتبسة! لم تعد تفهم شيئًا. تتحدَّث إليها السلحفاة في أمورٍ غير مفهومة، تبدو خطيرة، لِمَ اختارتها من بين كلِّ فتيات العالم؟ إنَّها عاديَّة وترتاب ممَّا هو «استثنائيّ». تذهب إلى المدرسة، تساعد أمّها في أعمال البيت، تتأمَّل العالم من نافذة غرفتها. أين الخارج عن المألوف في كلِّ ما تفعله؟ والسلحفاة لا تتوقَّف عن قول «اخترناك. عليكِ أنْ تكوني أكثر جرأة، الحياة لم تخلق للجبناء» من الذي اختارها؟

بحركةٍ لاإراديَّة، وضعت يدها على بطنها. أحسَّت ببذرةٍ في طورها الأوَّل من الانبعاث، تشقُّ طريقها بين الأحشاء الداخليَّة، عندها بدأ الذعر يستولي على كيانها. انتابها شعورٌ أنَّ حياتها ستتغيَّر إلى الأبد، ولا تملك إلَّا أنْ تنساق مع القدر المرتَّب: **قَدَرٌ خاصّ لامرأة غير مرئيَّة**. فتاةٌ إذا اختفت، لا أحد ينتبه إلى وجودها، كأنَّها غير موجودة، مجرَّد وهم. لماذا على الرَّغم من عيوبها الكثيرة وعاديَّتها أصبحت محطّ انتباه أحدهم؟ بؤرة اهتمامه؟ رأس يضجُّ بالأسئلة والشكوك. جسدٌ أخذ بالتحوُّل إلى كائنٍ حيوانيٍّ زاحف. الروح تئنُّ تحت وطأة عذابٍ غامض، قادم من بعيد، يُخيِّم أكثر كلَّما اقترب. ظلَّت متوتِّرة، ترتجف طوالَ الوقت وهي تتصبَّب عرقًا. تتحرَّك ببطء، وحركاتها مضبوطة، كلّ ما تفعله الانهماك في تأمُّل النوافذ. تتجوَّل بنظرها على طول اللوحة خطًّا خطًّا، ولونًا لونًا. كما اعتادت السلحفاة أن تخرج إليها من تحت السرير، وتسألها الأسئلة ذاتها.

ـ «هل النوافذ في مكانها؟»

ـ «نعم، لا شيء مختلف».

ـ «بدأتِ تخرجين من الخزانة، وتدخلين عبر النوافذ إلى عالمٍ أوسع، عمليَّة العبور تحتاج إلى أسابيع. لا تنظري إلى الجدار، إنَّه ميِّت، ركِّزي في النوافذ».

أشارت السلحفاة إلى الرسمة: «لا بدَّ لكِ من المجازفة».

ـ «ماذا تريدين؟»

ـ «لا أعرف، لكنِّي على يقين أنَّ وجودي معك له حكمةٌ ما، هذا التحوُّل من الحيوانيّ إلى البشريّ، لا بدَّ من أنْ يكون لسبب خفيٍّ، هل تعرفين؟ ينقصك الجرأة لأخذ خطوةٍ إلى الأمام».

ـ «أنا خائفة».

ـ «النوافذ المفتوحة تناديكِ، ألا تسمعينها؟»

عندئذٍ سمعت الفتاة صوتًا محايدًا يدعوها، فصمتت ولم تقدر على الكلام. أرادت أن تقول شيئًا إلَّا أنَّ الرعب شلَّها. هل تحوَّلت السلحفاة إلى بشريٍّ خالٍ من عذاب الضمير، شديد القسوة، قادرٍ على التحطيم دون شعورٍ بالذنب؟ هل ما تراه من السلحفاة خيرٌ أم شرّ؟ كانت الأمور ضبابيَّة أثارت في نفس الفتاة المخاوف. كانت 1/ 3 تعبِّر بلا خجلٍ عن مقتها للبشر، تقول: إنَّ العالم سيكون أفضل بلا كائناتٍ بشريَّة. بينما تزداد الفتاة قربًا من عالم الحيوانات. ذهنان مضطربان، وهويَّتان متداخلتان، مخلوقان

لا يعرفان مَن منهما الحيوان ومَن الإنسان، لا يُميِّزان أيُّهما الشرِّير وأيُّهما الطيِّب!

بعد نحو شهريْن، دون أن تودِّع أحدًا، أو تترك رسالة، اختفت. لا أحد فهم ما حدث، أو عرف مكانها، أو استطاع معرفة معلومة. كانت ملابسها مطويَّةً في أدراج الخزانة، وألعابها على الأرض، وكرَّاسات رسمها فوق الطاولة إلى جانب علب الألوان. بدا أنَّ الأرض انشقَّت وابتلعتها، صارت في عداد المفقودين، ثم سريعًا بدأت تؤلَّف حول اختفائها الشائعات. خمَّن البعض أنَّها تعرَّضت للاختطاف من عصابةٍ معادية للاجئين، وخمَّن آخرون أنَّها هربت كإحدى مراهقات موضة التمرُّد على العائلة، وتقول شائعات أخرى إنَّها انتحرت. الأغلبيَّة ذهبت إلى أنَّ منظَّمة «يوم الحساب» العنصريَّة مسؤولةٌ عن اختطاف الفتاة، وربَّما تعذيبها قبل تصفيتها. منظَّمة تضمُّ شبَّانًا متعصِّبين يرتدون ملابس عسكريَّة، يحلقون شعور رؤوسهم، ويضع بعضهم أوشامًا عند الرقبة، تتسلَّح بالهراوات والسلاسل الحديديَّة. هدفها، كما جاء على لسان الناطق باسمها، تحويل البلاد إلى أنهارٍ من دم المهاجرين والمتشرِّدين والهيبيِّين والملوَّنين. هذا الشعور بـ «الاستعلاء العرقيّ» وضرورة الحفاظ على «طهارة الجينات» أدَّى إلى سقوط عشرات الضحايا في أعمال العنف التي وقعت خلال السنوات الأخيرة.

هكذا، غابت الفتاة جسديًّا، واعتبرها الجميع ميِّتة. شيئًا فشيئًا، أصبحت تنتمي إلى عالم المنسيِّين، كأنَّها لم تكن، لم يتذكَّرها أحد، وطوى النسيان كلّ ما يتعلَّق بها.

أزرق

مدينة yes، الغرفة

13 تشرين الأوَّل، XXAX

10:00 صباحًا

مضحكة. مقزِّزة. شبقة. طفوليَّة. متبجِّحة.

عندما استيقظت، نظرت إلى وجهي في المرآة. كئيب، تعلوه هالةٌ من السواد. عيناي غائرتان. جسدي جافٌّ. شعري لعجوز في تابوت. لست عبقريَّة، ولا أعمل في وظيفة مهمَّة. أسعى، أجتهد، بلا يأس. مشكلتي التفكير. تطاردني الأفكار، مكافأتي القلق الدائم، واللهاث المحموم وراء جنَّةٍ مفقودة، لا وجود لها إلَّا في رأسي. في غرفتي الوديعة، أكثر من الناس المتوحِّشين أدور حول نفسي. أرقص. أتعرَّى. أنظر إلى تضاريس جسدي.

أمرِّر يدي عليه وأتفقَّده. نهار طويل. ملل. إحساس بعبثيَّة الأشياء. الوقت بطيءٌ في الداخل، سريعٌ في الخارج. أحبّ البطء، وهدوء البحر. جدران الغرفة بيضاء، البحر أزرق. الأبيض والأزرق يحتلَّان عالمي، يشعَّان في دماغي. يتسلَّلان إلى داخلي. داخلي مستباحٌ ومنتهك من اللونيْن إذ يربكانني. وقفت عند النافذة قبالة البحر. تنفَّست هواءً نظيفًا. كلّ نهار في المدينة بارد. أخرجت من خزانتي شالًا أزرق، وأحطت به كتفيَّ النحيلتيْن. رأيتُ امرأةً تُشبه حياتي مصلوبةً على طول الأفق. لطالما رأيتُ نساءً مصلوبات نائحات يرتدين الحداد، ويمارسن طقوسًا بدائيَّة. مغتصبات، يلطمن وجوههنَّ بعد موت أولادهنَّ. جنود وكلاب يطاردونني. دوريَّات عسكريَّة تُحاصر القرى. أسلاك شائكة. طرق مهجورة وخطرة. أشباح من العالم السفليّ. أشحتُ نظري إلى البناية المجاورة. شققها متشابهة بشرفاتٍ بيضاء، خرسانيَّة، تقف في انتظام. سمعت صراخ فتاةٍ مفجوعة. عواء مرعب دوَّى وسط السكون. نظرتُ إلى شرفة الطابق السابع. رأيتُ فتاةً صغيرة، مشعَّثة الشعر، ملابسها ممزَّقة، تركض نحو الخارج، تحاول رمي نفسها. لحق بها رجل ضخم، أمسك بها من شعرها وجرَّها إلى الداخل. لم يتجاوز الحدث ثوانيَ قليلة. انتفضت في مكاني. ارتعدت. سَرَتْ رعشةٌ في جسدي. حاولت التماسك. أسندت نفسي على حافَّة الشرفة، ثم تراجعت إلى الخلف.

جلست على الكنبة، وبعد لحظاتٍ من التفكير، وجدتني أفتح الباب هابطةً على السلّم. بسرعةٍ ركضت نحو البناية. كنت ألهث

والعرق ينضح من جسدي. صعدت قفزًا، أطوي الدرجة تلو الدرجة. وجدت باب الشقَّة مفتوحًا. طرقت على الباب. هل أجابني أحد؟ لست متأكِّدة. كأنَّني سمعت صوتًا يأذن لي بالدخول. دفعت الباب ودخلت. كانت قذرةً تشبه وكرَ حشَّاشين. الصالون عاديّ. الأثاث قديم ومهترئ في فوضى. قطعت الممرّ إلى أنْ وصلت الغرفة الأولى. وجدتها مغلقة. مشيتُ إلى الغرفة الأخرى. نظرتُ من شقِّ الباب، لم أَرَ أحدًا. دفعته بهدوء. دخلتُ. لفحتني رائحة الكحول والدم المتخثِّر. الغرفة معتمة. عبثًا بحثت عن مفتاح الضوء. سمعتُ صوت شخصٍ يئنُّ من الألم. كان الأنين يأتي من خلف السرير. مشيت صوب الصوت. رأيت جسدًا مسجًّى على الأرض. جسدًا صغيرًا هزيلًا. حوله قيودٌ وأقفالٌ وكِماماتٌ بكرات للفم وإبرٌ للحقن. عندما اقتربت تحوَّل الأنين إلى صراخ. انكمش الجسد وأخذ وضعيَّة الجنين. فجأةً، سمعت صرير باب الشقَّة. أصوات خطواتٍ خشنة زحفتْ نحوي. هربت كما أفعل دائمًا. انزويت. تحسَّست بيديّ المرتجفتيْن الجدار المقابل بحثًا عن خزانة. كانت قابعةً هناك مثل وحشٍ أسطوريٍّ، تغطِّي الجدار بهيكلها الضخم الذي يصل للسقف. ألواح سميكة من خشب الصنوبر، تبدو قاتمةً وقديمة، يقطعها خطوطٌ متموِّجة، فتبدو كأنَّها متاهة، لوحٌ خشبيٌّ مرصوص بشكل أفقيٍّ فيه الكثير من الثقوب وخروم المسامير. الأرفف العلْويَّة مكدَّسةٌ بالملابس، فساتين بخيوطٍ رفيعة على الأكتاف، وقمصان نوم معلَّقة، وتنانير قصيرة، وبناطيل جينز، وملابس داخليَّة ومشدَّات وجوارب. خزانة في غرفة، والغرفة في مكانٍ لا

أعرف عنه شيئًا، تسند ظهرها إلى جدار، وأنا أسند ظهري إليهما. تذكَّرت تلك الليلة حين اختبأتُ في خزانة، تمنَّيت أنْ أكون في حلم. تقتُ، لحظتها، ليدٍ تواسيني، تسحبني إلى الخارج. شعرت أنِّي مادَّةٌ تافهة لا قيمة لها. انمسخت إلى كائنٍ حقير، يتخبَّط في القذارة. صوت الخطوات صار أقرب. الأنين تحوَّل إلى صمتٍ مطبق. لحظات هدوء مرَّت قبل أن أسمع صوت صفعة، تبعها صراخُ مجنون. ألمٌ في ألم. انتبهت إلى فجوةٍ في الجدار الأماميّ بقطر مسمار، يتسلَّل منها الضوء. ملتُ برأسي لأنظر. وضعتُ عيني اليمنى. رأيتُ كلّ شيء. الألم، القسوة، الجنون، العذاب، في هيئة بشريَّة. كان هو، لا أحد غيره. كنت أنا، لا أحد غيري. حينها شُلَّت أطرافي. انشلَّ جسدي حقيقة، لا مجازًا. عجزت عن الحركة. لا شيء سوى أنفاسي. متصلِّبة، رأسي مركوز في خشبة الباب. عيني تنظر عبر الفجوة إلى الخارج.

حدثت لحظةٌ رهيبة، يعجز المرء الطبيعيّ عن وصفها. كنت أرتجف من الهلع. أنتفض مغمورةً بالألم. ألمٌ عنيف رجَّني. أمام هذا الرعب، وجدتني جامدةً، مذهولةً ممَّا أراه. في تلك الغرفة الجهنَّميَّة، لم يكن لي أحد، لا حبيب، ولا عائلة، ولا أصدقاء. كان لا بدَّ لي من أن أجرَّ خطواتي الواهنة وأنسحب من الحياة. أن أرحل إلى خارج العالم، إلى العدم. رأيت والدي يقف أمام السرير، يحمل بيده كرباجًا. فتاة مسجَّاة ترفع ذراعها لتحمي وجهها. الكرباج ينزل بلا رحمة. ضربات منتظمة رتيبة. والدي يرتدي بذلةً عسكريَّة وبسطارًا. يتجهَّم. يشتم. يبصق. يضرب

بكرباجه. الفتاة صرخت بجنون، فقدت عقلها من الألم. شدَّها من شعرها، ثبَّت يديْها ورجليْها بالقيود، ووضع كِمامةً على فمها، ثم ذهب ليحضر حقنة المخدِّر. عندما التفتتْ، تمكَّنتُ من رؤية وجهها. كنت أنا. التقتْ عيني بعيْنها اليسرى. كانت الأخرى متورِّمة. ارتعبت. **عيني تحدِّق إلى عيني**. أنا التي في الخزانة، تنظر إلى أناي الأخرى التي في السرير. وتذكَّرت تلك الليلة، حين اختبأت عن والديَّ. *شعرت أنِّي أختنق، كأنِّي في بئرٍ عميقة، لا هواء فيها، أو في بيتٍ مهجور تسكنه كائناتٌ ماورائيَّة...*

أخضر

مدينة yes، الخزانة

13 تشرين الأوَّل، XXAX

13 : 10 صباحًا

كنتُ عاجزةً. الشعور بالعجز موجعٌ، كنتُ متصلِّبةً مثل تمثال. كلّ ما كنت أراه ساديٌّ وقذر. في تلك اللحظة، رأيت الأرقام 9 6 3 محفورةً في الحائط وراء السرير. المسكينة كانت تنزف بقوَّة وأنا أنظر إلى دمها الذي يسيل، دون أن أفعل شيئًا. حاولت أن أصرخ. فتحت فمي عن آخره. لا صوت. فقط بُحَّة خفيفة بالكاد أسمعها. صارعت الفتاةُ العنف والموت. يدها الصغيرة حاولت عبثًا دفع الكرباج. بدأت تستسلم لساديَّة معذِّبها. شرعت تسلِّم نفسها للموت. رأيت جسدها ينكمش. أظافرها تنغرس في القماش.

عيناها منتفختان تحدِّقان في العدم. داخلي خواء. رأيتني أموت معها. شعرت بأصابعي / **أصابعها** تتيبَّس. أنفاسي / **أنفاسها** تخرج ملتهبة. وجهي / **وجهها** متورِّم. لم أفهم ما يفعل! أيريد قتلها أمْ أنَّه يستمتع بألمها؟ لماذا يغتصب طفلة؟ أيكرهها إلى هذه الدرجة أمْ أنَّها تُثير الحيوان داخله؟ ما الذي يعجبه في بنتٍ صغيرة؟ كانت أكثر أوقاتي وحدة، ألمًا، غربة. شعرت بضرورة الخروج من العالم والانسحاب نهائيًّا. وجودي بحدِّ ذاته خطأ. لا أفعل هنا، غير أنِّي أتألَّم، أُعاني، أشقى، أتشظَّى. ماذا سيحدث لو توقَّف الزمن؟ لو أنَّ هذه الخزانة خارج العالم، بلا فراق، بلا وداع، بلا غربة؟ في الخزانة، لم أَرَ خلاصًا. وحيدةً كنت لا مخرج من وحدتي. لا أدري كم استمرَّ الأمر! فقد تداخل الليل في النهار. لا مواقيت. كنتُ أرى الموت يتقدَّم شيئًا فشيئًا، إلَّا أنَّه لا يصل إمعانًا في التعذيب. كيف غرَّرت بي الأحلام؟ موحشة، لديَّ ما يكفي لأصدِّق أنِّي في كابوس. أسند رأسي في الفراغ، وأُقلِّب تيهي. من أنا؟ هل المرأة المختبئة في الخزانة؟ أمْ الطفلة المستباحة في السرير؟ ضيَّعتني الأحجية. غفوْت. ولجت ظلامًا حالكًا. لا أدري كم مرَّ من الوقت. عندما استيقظت، فتحت عينيّ على الفتاة مسجَّاةً على السرير. لم يكن غيرها في الغرفة. سمعت صوت حركةٍ في الخارج. ربَّما كان متأتِّيًا من المطبخ، خشخشة المعالق والصحون والسكاكين، ثم انهمار الماء من دوش الحمَّام. حينها حرَّكت أطرافي، فتحرَّكت ببطء. ظننتني ميِّتة، أو أن شللًا تمكَّن منِّي. خَدَر في جسدي، وبرد في المفاصل. فتحت الدفَّة بحذر. أخرجت رأسي. راقبت الغرفة من كلِّ الاتِّجاهات. زحفت على الأرض.

بدت الفتاة / بدوت مخدَّرة لا أسمع ولا أرى. بدوت جثَّة لولا أنفاسٌ ساخنة خرجتْ بصعوبة. جسدٌ صغير فتيٌّ لمع تحت لمبة السقف. كنتُ عارية. دمٌ متخثِّرٌ ممزوج بعرقٍ يُغرقني. رائحةٌ كريهة تفوح من جسدي. متصلِّبة بلا حراك، وحين حرَّكتُني بدأت أجزاء من جسدي بالاسترخاء. رحتُ أكتشفني طفلة.. جسدٌ تتفتَّح فيه براعم الطفولة. نهدان صغيران بحلمتيْن حمراويْن. شعر العانة خفيف مثل عشبٍ نبت على استحياء، عشبٍ مبتلٍّ بالعرق. مرَّرت أناملي على جلدي، تحسَّسته، تفقَّدته، أوجعني. لفَّ الصمت كلّ شيء. لا نباح في الخارج. حتى صوت انهمار الدوش في الحمَّام توقَّف. سمعتُ حركةً خارج الحمَّام، فزحفت من جديد، واختبأت في الخزانة. وضعت عينيَّ على الفجوة. رأيته يحمل حقائبَ بلاستيكيَّةً سوداء، وضعها على الأرض. غطَّى أرضيَّة الغرفة بقطعة نايلون. خرج وعاد بمنشار كهربائيٍّ. مدَّد الفتاة. لبس القفاز وأدار المنشار. بدأ في تقطيع الأعضاء. فَصَل الرأس عن الرقبة. نَشَر المفاصل، ثم قطَّع الذراعيْن إلى نصفيْن، ثم الساقيْن. شقّ بالسكِّين صدرها ليُخرج الأحشاء. تدفَّقت الدماء. وضع قطع اللحم في أكياس سوداء، ثم ألقى بها في الحقائب. رحت أتحطَّم. في تلك اللحظة أدركت أنَّني انتهيْتُ، وأنَّ الروح التي قاومت كثيرًا تتلهَّف للراحة. لا شيء. لم أفعل شيئًا. الخوف صيَّرني إلى حشرة. بقيتُ أبحلق بعينيْن مرعوبتيْن. أحسست بألم حادٍّ في صدري، وحاولت التنفُّس، غير أنَّ الهواء لم يمرّ. انتظرت الموت لكنَّه لم يأتِ. كنت واعيةً لما يجري حولي، قبل أن يحلّ الصمت والظلام، لأجدني في هوَّةٍ سحيقة.

أصفر

مدينة yes، **الخزانة**

13 تشرين الأوَّل، XXAX

8:00 مساء

في لحظةٍ ما، استيقظت. كان شعوري بالعالم هادئًا، وبطيئًا، وساذجًا. عندما فتحت جفنيَّ، لم أرَ شيئًا. عتمة حالكة. حاولت أن أمدَّ يديَّ لأفرك بهما وجهي، إلَّا أنَّني لم أستطع. لطالما شعرت أنَّ ثمَّة كائنًا في داخلي، بطيئًا ويتألَّم بصمت، لم يحن أوان تجسُّده. كانت الفكرة مخيفة، باردة. شعرت بتوتُّر في جسدي. فارغة. أطرافي قصيرة وثقيلة. حملٌ ثقيلٌ على ظهري لا أدري ماهيَّته. لا يبدو الأمر حلمًا! لا سيطرة على جسدي. أفقد توازني كلَّما حاولت الحركة. إنَّني في الخزانة ذاتها، لكنَّها تبدو

أكبر ممَّا كانت عليه. كتلتي أصغر. شعوري بالأشياء مختلِفٌ كأنَّها من عالمٍ آخر. لم يكن بوسعي الاستدارة بسهولة أو الجلوس بارتياحٍ. فقدت مرونتي، حرِّيَّة أطرافي، قدرتي على المناورة. شعرت بخشونة جلدي وجفافه. رغبةٌ عارمةٌ بالمكوث في مكاني. عندما حاولت أخيرًا التحرُّك، وجدت صعوبةً في تحريك أطرافي، فاستجمعت قواي ودفعت نفسي، حينها سمعت صوت احتكاك جسدي بخشب الخزانة. أفزعني الصوت. سمعت فجأةً صرير المفاصل، ثم رأيت ضوءًا كثيفًا يندفع إلى الخزانة، فأسرعتُ واختبأت بين الملابس. الرؤية مشوَّشة. أثاث الغرفة ذائب. أشياء تطير. الألوان تغزو المشهد. شيءٌ ما يغلق حنجرتي. راقبته بعينيْن مرعوبتيْن. ضوءٌ قويٌّ ويدٌ شبحيَّة. اعتقدت أنَّ أمري قد فضح، لكنَّه لم ينتبه إليَّ. في تلك الثواني القليلة، تمكَّنت من النظر إلى جسدي: صَدَفةٌ عظيمة بخطوطٍ وحلقات وظلالٍ بنِّيَّة وصفراء، وحراشف كثيفة، وأرجل أسطوانيَّة قصيرة تتحرَّك في الفراغ.

صدمة. لا أستطيع تحديد اللحظة التي تحوَّلتُ فيها. كان كلّ شيءٍ يأتي من مكانٍ بعيدٍ وخفيّ. حتى «أنا» صارت غريبةً والكائن الذي كنته تشوَّه. مع تلك الصَدَفة الهائلة التي تحاصرني، لم يكن ثمَّة تخمين، غير أنَّني مُسخت إلى سلحفاة. أرعبني ما رأيت، فأدخلت رأسي وأطرافي داخل القوقعة. كان الجوُّ باردًا في الداخل، لكنَّه منحني راحةً وشعورًا بالاطمئنان. **أبقيت رأسي هناك، مختبئةً من العالم، داخل قوقعتي. قابعة في الظلام بلا حراك. ظلام، ظلام، ظلام.** أغلق «أَلِف» الخزانة من جديد.

أخرجت رأسي بهدوء. هكذا، وجدتني محبوسةً في هيكلٍ عظميٍّ ثقيل، كلَّما تحرَّكت سحبته معي. لا مجال للحركة إلَّا زحفًا ببطء نحو الأمام. حاولت بعثرة ما حولي بقوقعتي الصلبة، وأصدرت صوتًا أشبح بفحيح أفعى، إذ سيطرت عليَّ حالةٌ من الهَيَجان والغضب. كانت قطعة ملابس تحجب عنِّي الرؤية، فأزحتها برأسي. حرَّكت أطرافي الخشنة. تسلَّلت بحَذَرٍ شديد بين أكوام من الملابس. تعثَّرت بشيءٍ ما وكدت أنقلب. الخوف هنا، من أن أنقلب على ظهري. هذا يعني الموت وحيدة، في عتمة الخزانة، ولا شيء آخر. أيقظني الخوف. خائفة ممَّا يحدث حولي. حذرةً مشيت أبحث عن شيءٍ يؤكل. عشبة، تفَّاحة فاسدة، ورقة. فتَّشت في مساحة ضيِّقة، لكنِّي لم أجد شيئًا. بدا أنَّني سأموت جوعًا. التصقت بحائط الخزانة أحكّ أرضيَّتها بقدميّ الأماميَّتيْن في محاولةٍ يائسة. قدماي مشدودتان متوتِّرتان، في جسدٍ مكلوم ينتفض ألمًا. عيناي محتقنتان وجاحظتان لحيوانٍ مذعور يبصر موته. المكان مظلمٌ مخيف، والجوّ خانقٌ رطب. شعرت بثقلي. ثقيلة. الزمن توقَّف. حلَّت عليَّ اللعنة، لا مهرب. تتساوى الأشياء والمشاعر. ترنَّحتُ. اصطدمتُ بجدران الخزانة. نظرتُ إلى الظلمة حولي. يا لها من نهاية! كلّ ذلك العالم الذي في الخارج لا مكان لي فيه. منبوذة، لا أشعر إلَّا بالعار. عار لامتناهٍ. وسط كلّ تلك العذابات، بدت لي محاولة الخلاص في منتهى العبث. فأنا عالقة في مصيرٍ لا يد لي فيه. لم أختره. وجدتني في لحظة خوفٍ قاس. لا خلاص. شعرت برجفةٍ قويَّة. هل أنا مريضة؟ أعصابي منهارة. كلّ شيء يدور حولي. خالجني

شعور دائم بالغَثَيان، وزاد توتُّري باطِّراد، ووجدت صعوبةً في التفكير، وعانيت من بطء الفهم، إضافةً إلى رائحة كريهة فاحت من جسدي. شعور جديد، لم أعرفه من قبل، أخذ ينمو ببطء، ثم تشكَّل بوضوح: مزيج بلادةٍ ولامبالاةٍ وإرهاق. خاسرة لا أملك من أمري شيئًا. وجودي لا معنى له. أتخبَّط في الصمت والعتمة. أمرٌ فظيع. هل من أملٍ هنا، في مكانٍ يعجّ بالخوف؟ كائن بلا قيمة، يمكث ساكنًا في المتاهة. لحظاتٌ مروِّعة. كابوس يستحيل وصفه. مرَّت الساعات وأنا في الخزانة. كانت مظلمة وخانقة. لا هواء، لا طعام، لا ضوء. ظلام كثيف. رحت أبحلق في السواد الثقيل أمامي، فانبثقت ذكرياتٌ قاتمة، كثيرة، من أزمانٍ غابرة، ذكرى خلف ذكرى، وجوه الناس الذين آذوني. «لماذا؟ ماذا فعلت لهم؟». ما عادت بي طاقة للتفكير، لا متَّسع للفهم. «ليس هذا وقت الأسئلة» وبَّخت نفسي. مرهقة. في ذعرٍ زحفت باحثةً عن مكانٍ للهرب. بذلت كلّ طاقتي. بعد أن تمكَّن منِّي الجوع والتعب، جرجرت أقدامي بصعوبة، واستلقيت منطرحةً على بطني بسكون. لم يكن بوسعي إنقاذ نفسي من التهلكة. محشورة وجسدي مهدود. شعرت أنِّي بلا وزن، ونبرة صوتي باهتة، وكياني فارغ من أيَّة قوَّة، وسيطرت عليَّ حالة من اليأس. الحركة كانت شبه مستحيلة. لم أقدر على تحريك أطرافي. التقطت بعض الهواء لأستردَّ به رئتيّ، بعد اختناقٍ طويل من رائحة الخشب المهترئ وأبخرة الأنفاس. رغبة عارمة بالعطس، كتمتها، صدري ضاق، التنفُّس عمليَّة شاقَّة ومنهكة. في تلك اللحظات، أرهقت ذهني بالتفكير، مرَّةً أخرى، عبرت رأسي صُوَرٌ كثيرة. سألت

نفسي: هل سأموت في الخزانة؟ عانيت من آلامٍ مبرِّحة. لا شيء غير زفرات واهنة. أفكار مجنونة تهرول في عقلي. «آآآه». . تأوَّهت مرخيةً جسدي على أرضيَّة الخزانة. ضرباتٌ مؤلمة تأتيني من كلِّ صوب. تحوَّلت إلى سلحفاة مشلولة، مفرغة من الطاقة. الألم أصبح غير محتمل. بدأ من صندوقٍ أسود فارغ في رأسي، ثم امتدَّ لبقيَّة الجسد. رحت أختنق بسائلٍ لزج أخذ يتجمَّع في حلقي. جسدي يتفتَّت، فكَّرت، لا بدَّ من أنَّها الروح تنسلّ من الخلايا. بردٌ في أطراف أصابعي، وظلامٌ ثقيل في رأسي. هل هذا هو الموت؟ سواد عظيم وهائل. «لن أموت» سمعت صوتًا داخليًّا يصرخ بي. لكنَّني أحسست بالنهاية تقترب. المكان الضيِّق زاد الوضع سوءًا. لم يخطر ببالي أبدًا أنْ أموت في خزانة. كنت في حالة موت سريريٍّ. تيبَّس جسدي. اندسَّ الموت في حضن المكان. حاولت الكلام. حاولت الصراخ. صوتًا خافتًا كان الموت وهو يقترب منِّي شيئًا فشيئًا. استسلمت للعتمة، للإنهاك. بعد وقتٍ، نهضت أتخبَّط في عمائي، ضربت بيديّ الفراغ. بلعت ريقي. عطش شديد. رائحة العرق والأنفاس صارت أكثر كثافةً وثقلًا في صدري. تواصلت المعاناة. العتمة كلّ شيء. العتمة تلفّني. العتمة ترتديني. رحت أستعيد ليلة اختبائي في الخزانة وأنا طفلة، لكنْ هذه المرَّة، مختلفة، تستعصي على التفسير. هل أنا ميِّتة والموت ظلام ثقيل؟ أم أنِّي واهمة، والتبس عليَّ الأمر؟ لم أشكّ شعوريًّا أنَّ كلّ ما حدث لي حقيقيّ. شعرت أنِّي سلحفاة. رأيت أنِّي سلحفاة. «أنا سلحفاة» همست لنفسي. جلدي البشري انسلخ، وشعوري بالعالم اختلف. ولكنْ، ربَّما فكرٌ مريض،

توهُّمٌ، حلمٌ لعين. لا أفهم في علم النفس! شيءٌ ما يتخطَّى حدود الواقع. يحتاج فهمه أكثر من العقل، تحالف بين عدَّة أشياء، أدوات علميَّة، طرق سحريَّة، يمكِّننا من فهم ما يحدث. هذا «الذي لا أفهمه» يأتي من بعيد، تبدو تفاصيله واضحة، يتلبَّسني، يأسرني في لعبته. شعرت بالإنهاك، وتباطأ تنفُّسي. لا أريد التفكير، يستهلك طاقتي. نَفَدتْ بالفعل. العقل لعنة. تتلاعب به الأوهام. انطفأت الضوضاء في دماغي. أغمضت عينيّ. تخيَّلت البحر. رأيت نوافذ تتوالد. سمعت صوتًا يصرخ بي: اعبري. العبور تحوُّل. رحلةُ سموٍّ روحيٍّ لا تمرُّ إلَّا بعذاب. تعذَّبت. شُلَّ تفكيري، وكلّ ما حولي ظلام. انكمشت. تصبَّبت عرقًا دبقًا وحارًّا. اختنقت. اشتدَّت الحرارة. كأنَّ الشمس فوق رأسي. شعرت بالغرق. غبت في ضبابٍ أسود. خوفٌ من المجهول هزَّني. انهمرت الدموع من عينيَّ الصغيرتيْن المذعورتيْن. لم أعد قادرةً على الرؤية أو الحركة. سائل دبق ودافئ، رائحته ثقيلة وطعمه مالح أشبه بالصدأ، نزَّ من جسدي. ازرقّ لحمي. حشرجات الموت في حلقي، وعيناي منتفختان.. غصتُ في عماءٍ شديد السواد.

برتقاليّ

مدينة yes، **المصحَّة**

23 تشرين الثاني، XXAX

10:00 صباحًا

بدت الأشجار أكثر كثافة من وراء زجاج سيَّارة الإسعاف، والأمطار التي تهطل بغزارة تبلِّل أوراقها. كنت أشيح بوجهي عن المسعفين، بينما أحدِّق إلى الخارج، كما لو أنِّي شبحٌ منقطعٌ عن العالم! صامتة، لا أدري ما يحدث حولي. بحثت عن البحر بعينيّ الذابلتيْن، فلم أجده. رأيت أشجارًا ضخمة تمتدّ على الجانبيْن. شقَّت سيَّارة الإسعاف طريقها مسرعةً، وسارت في منعطفات أكثر شدَّة. كانت السيَّارة تتوغَّل في عمق غابةٍ مظلمة، لا تصلها غير الرياح والأمطار. استيقظت عند نقطة معيَّنة من حالة

غريبة تلبَّستني، مرضٍ ما، وكنت بحاجة إلى علاج. لا أدري كم طال غيابي. وليس لديَّ فكرةٌ عن العلاجات التي خضعتُ لها قبل خروجي من الغيبوبة. انتابني هدوءٌ غريب، كتلة جليد استقرَّت داخلي، لم أتفوَّه بكلمة واحدة، فقط عيناي المذعورتان حدَّقتا في الفراغ. الشيء الوحيد الذي يمكن فعله أن أتماسك، وأُقنع نفسي بجدوى الحياة. أقف فوق أرضٍ تهتزّ تحت قدميّ، لا تعرف الثبات، شعوري دائم بالخوف، أتنقَّل في هجراتٍ لا تنتهي، بين ألمٍ وأمل، ليس ثمَّة ما هو مؤكَّد أو يقينيّ، كلّ شيء قابلٌ للشكِّ.

لم أستوعب الحالة، ولم يكن لديَّ تفسير لما عشته من رعب وقذارة. على الرَّغم من أنَّ كلَّ شيء بدا أنَّه انتهى، إلَّا أنَّني شعرت بحقيقة ما حدث، الشعور أنَّني تحوَّلت إلى سلحفاة مذعورة، درعٌ عظميٌّ غير مرئيٍّ حاصرني، والبطء في الحركة. عشت أيَّامًا في حالةٍ من الغيبوبة والاحتضار، بنصف حياة، خارج حدود الزمن. تسلَّخ جلدي من التعفُّن، وانبعثت منه رائحةٌ كريهة، وبدت طبقات لحمي فاسدة، كما تشكَّلت هالاتٌ شديدة السواد تحت إبطيّ. كيف سأشرح التجربة؟ أين الحقيقة وأين الخيال في قصَّتي؟ لا أعرف إنْ كان ما عشته حقيقيًّا أمْ من صنع أوهامي. بدا الأمر جنونيًّا، لا يمكن تصديقه. كأنَّني في لحظة سكر، رحت أتذكَّر الأشياء التي حدثت منذ زمنٍ بعيد، لكنِّي لست متأكِّدًا من حدوثها.

اجتازت سيَّارة الإسعاف بوَّابةً حديديَّة سوداء، فيها اثنان من الحرس لفحص الأوراق، ثم وقفت أمام مصحَّة الأمراض العقليَّة والنفسيَّة. كان مبنًى قديمًا. وجدته كئيبًا، موحشًا، حوائطه رماديَّة

عالية، تُحيط به أسوارٌ ضخمة، تعتليها أبراجٌ وغرفٌ تأوي الحرَّاس، وراء الأسوار أشجار سنديان معمِّرة وكتل صخريَّة وغرف شبه عسكريَّة. يستقبل المكان المرضى ليتلقُّوا العلاج اللازم من أطبَّاء متخصِّصين قبل خروجهم حال الشفاء من المرض. قلت لنفسي لا بأس، سيمرُّ بعض الوقت قبل أن يُطلقوا سراحي من جديد. حين وصلت، تبعت أحد الممرِّضين في ممرٍّ مزدحم بالغرف حتى ولجت غرفةً صغيرة بالطابق الثالث، يعلو بابها لافتةٌ مكتوب عليها بخطٍّ باهت 9 6 3. كانت فقيرة الأثاث، فيها سريرٌ مغطًّى بملاءةٍ زرقاء، وخزانةٌ صغيرة، ولها نافذةٌ عالية بقضبان حديديَّة، مغلقة بشبكٍ متَّسخ، يُثير الكآبة في النفوس، السقف يخلو من مروحة أو حلقة معدنيَّة، كلّ شيءٍ مجهَّز لحماية المريض من إغراءات الانتحار.

بقيت طوال شهريْن صامتة، لا أتكلَّم إلَّا عند الضرورة، ولا أنام جيِّدًا بسبب الكوابيس، فقدت متعة النوم لفتراتٍ طويلة. في الليل، أثناء نوبات الأرق، كنت أجلس أمام النافذة، أصيخ السمع لحشرات الليل ممعنةً التفكير في الماضي. وجوه الممرِّضات تتغيَّر، وأصوات تتعالى دائمًا من حولي: صراخ، انتحاب، غناء، خطوات في الممرِّ، أصواتٌ تهمس وراء الجدران، أصواتٌ تأتي من عمق الغابة. أقوم من نومي مذعورة، وأنا أشعر بالاختناق. خلال النهار أحبس نفسي في الغرفة رافضة الخروج. متى بدأ السقوط؟ سألت نفسي كثيرًا طوال هذه الفترة، الهجرة من الجنوب أمْ حادثة اغتصابي؟ أحيانًا، كنت أنهض من سريري وأضرب رأسي بالحائط حتى أسقط شبه ميِّتة. عندما

أستيقظ أجدني في غرفةٍ بلا نوافذ، مقيَّدةً إلى سريرٍ معدنيّ، أشعر برأسي ثقيلًا بسبب تأثير المخدِّر. أكان بوسعي وقف الانهيار قبل حدوثه، وعوضًا عن ذلك استسلمت؟ فقدت كثيرًا من وزني، وعصف بجسدي ألمٌ لا يُطاق، غامضُ المنشأ، يسري مع الدم لينتهي في كلِّ الأعضاء. حينها كنت أصرخ بوحشيَّة، فيركض نحوي ممرِّضان ليغرسا إبرةً في ذراعي، ويُقيِّداني إلى السرير بأحزمةٍ جلديَّة.

عشتُ على الأدوية وحقن مهدِّئ الأعصاب. شعرت بوحدةٍ قاسية، إذ لم يأتِ أحدٌ لزيارتي، اشتهيت يدًا تربِّت على يدي بحنان، وكلمة اهتمام تُذيب كثبان الثلج داخلي. أخبرني الطبيب بضرورة الهدوء وقبول العلاج، عندما أضربت عن الطعام، أجبروني على التغذية القهريَّة من الأنف بواسطة أنبوب. كنت أموت بينما يتدفَّق الجحيم عبر حلقي إلى الصدر، ليستقرّ أخيرًا في أعماقي. ليالٍ طويلة من الصراخ اليائس، لا أحد يسمعني غير الممرِّضات، يركضن بالإبر وحقن المورفين والأحزمة. الأوجاع حادَّة، وجسدي منهك. كنت أقول دائمًا للطاقم الطبِّيّ إنَّني لست مجنونة، إنَّما مكتئبة، بحاجة فقط إلى علاجٍ نفسيّ. ما وجدت غير العنف. الجميع هاجم جسدي الذي لم يعد قادرًا على التحمُّل. يقاتلون امرأةً وحيدة. بعدها شعرت بلا جدوى المقاومة، فانزويت إلى نفسي. لم أعد أصرخ، ولم أعد أضرب رأسي بالحائط. ما من أحدٍ يكترث لحياتي أو مماتي. حياتي معلَّقة بأيدي رجال لا يشعرون بي، أطبَّاء يفحصونني بسرعة، يعبرون بين الغرف مثل الريح مستعجلين، أسمعهم يتحدَّثون إلى

الممرِّضات عن حالتنا الصحِّيَّة بكلام لا أفهمه، يبدو أنَّنا لا نعني لهم شيئًا، يؤدُّون وظيفةً رتيبة ضجروا منها. أطبَّاء تبدو عليهم الوداعة، لكنَّهم يتحوَّلون عند الغضب إلى وحوش، والمريض متَّهم إلى أنْ يثبت براءته، قد يمضي أزمنةً في غياهب النسيان، يتردَّى جسده دون أن ينتبه إليه أحدهم!

وقتٌ طويل من الفراغ، لا أفعل فيه شيئًا سوى الانتظار. فقدت الإحساس بالزمن في هذا المبنى الذي يُخيِّم عليه الحزن. تلاشت الحدود بين الواقع والوهم، أصبحت الحياة سائلةً يستحيل القبض عليها. الألم جعل منِّي امرأةً أخرى مشوَّهة، أتعرَّف إليها في كلِّ يوم. أردت أن أحرِّك يديّ، أرسم، أعبث، أستخدمهما لأشعر بجدوى وجودهما. كنت أشعر دائمًا بالإرهاق، بسبب تأثير المخدّرات والحقن المهدِّئة، ولطبيعة المكان المعزول عن العالم. حاولت تدريب ذاكرتي بتذكُّر أشياءَ تخصُّني فقدتها، أشياءَ صغيرة لا تعني أحدًا سواي. الأماكن التي زرتها قبل الوقوع في الهاوية، المقطوعات التي استمعت إليها، وجوه الناس الذين أعرفهم.

اعتدتُ الجلوس قُبالة النافذة حيث تنساب أشعَّة الشمس. كانت نافذةً صغيرة محميَّةً بقضبان حديديَّة. هذه اللحظات الوحيدة التي أستردُّ فيها نفسي. سماء واسعة زرقاء خارج النافذة. أزرق يملأ عالمي قبل الغروب. أنظر إلى الغابة، أتأمَّل، أستنشق الهواء العابق برائحة النباتات البرِّيَّة. أتخيَّل أطفالًا يلعبون في الباحة، يركضون، يصرخون، يملأون بضجيجهم العالم، يطيِّرون طائراتهم الورقيَّة في السماء. أولاد ببناطيلهم الممزَّقة وأحذيتهم الرياضيَّة، وبنات بتنانيرهنَّ المزركشة وأقراطهنَّ الملوَّنة. أرى قطيعًا من

الذئاب يعوي ويركض بين الكهوف، فأرتجف، وأتحوَّل إلى ذئبة، تندفع في الأدغال باحثةً عن فريستها. أرى نساءً يزغردن من شبابيك قريتي البعيدة، يستقبلن العائدين من الحرب بالورود والقبل. أنظر إلى النساء يتمشَّين في الفِناء يستدفئن بأشعَّة الشمس. شعورهنَّ منكوشة، وملابسهنَّ البيضاء مهترئة، خطواتهنَّ ثقيلة، ظهورهنَّ محنيَّة، حركاتهنَّ تنمُّ عن يأس، بعضهنَّ يعرجن أثناء المشي، بعضهنَّ يجلسن على مقاعد خيزران تحت ظلال الأشجار.

الصمت يُفقد الإنسان صوابه، تتقافز حيواناتٌ مفترسة في الرأس. أجد في الخيال خلاصي، أتخيَّل ما أفتقده: الرقص بانتشاء، الاستماع للموسيقى، المشي بحرِّيَّة. هذه اللحظات التي أستمتع بها لا تخلو من توتُّر. هذا الشعور الخفيّ بالترقُّب، بأنَّ شيئًا سيحدث، حدسًا يُنذرني قبل وقوع الأشياء. حرصت دائمًا أن تكون غرفتي نظيفة، الملابس مطويَّة ومرتَّبة في مكانها، لا أوساخ على الأرض. اعتادت ممرِّضتان أن تتفقَّدا غرف المرضى كلَّ صباح، تحرِّران المخالفات مثل شرطيَّتيْن لئيمتيْن، يعاقبن، يضربن، وما كنت أريد أن أُدخل نفسي في المشاكل، خاصَّة أنَّ جسدي ضعيف لا يحتمل.

لم يكن يُسمح لنا بالخروج من المبنى، إلَّا في أوقات الاستراحة، نمشي في حديقة مُحاطة بسورٍ عالٍ وحرَّاس. الحراسة مشدَّدة، بدا المكان أقرب إلى سجن، أبواب حديديَّة، وأسلاك، وأضواء كاشفة. يتعرَّض المريض للتعذيب، يسمُّونه الأطبَّاء علاجًا. منذ اللحظة الأولى، تبدأ رحلة المعاناة في مبنًى موحش،

معزولٍ عن العالم، محاصر بالحقن المهدِّئة.

رأيت على أجساد بعض المرضى ندوبًا وآثار حروق. ذات مرَّة وجدتني عارية، وجهي على الأرض، والضرب يأتيني من كلِّ جانب، لا أتذكَّر غير أنِّي كنت أصرخ بهم أنْ يتوقَّفوا ويرحموني. شعرت بالكراهية. كراهيةٍ صلبة تجاه كلِّ الأشياء. كرهت العالم، والمصحَّة، والناس، ونفسي. حاولتُ صفع وجه إحدى الممرِّضات قبل أن أنفجر بالبكاء. استمرُّوا في ضربي بوحشيَّة. دافعت بجسدي العاري، بساقيّ الطليقتيْن، صرخوا بي أن أظلّ هادئة، ولا أكرِّر تصرُّفاتي. بدأت في هَذَيانٍ مسعور، هاجمتني نوبةُ تشنُّجات عنيفة، فكنت أبحلق في الأرض مرعوبة، جسدي ينتفض، ذراعاي مشدودتان في الهواء، كأنَّهما يقبضان على شيءٍ ما، واللعاب يتدفَّق من فمي ملطِّخًا ملابسي. حاولت الصراخ وطلب المساعدة، غير أنَّني بقيت غارقةً في قذارتي، بينما هرعت الممرِّضة تحمل إبرة المخدِّر في يدها لتحقنه تحت إبطي. جعلونا نرتدي قمصانًا بلون الجنون، كلّ شيء هناك أبيض. تتَّسخ الملابس، وبسبب قلَّة الغسيل تكتسب اللون الأسود. حين نلتقي في الردهات، ننظر إلى بعضنا بعضًا باستغراب، نبدو أشباحًا مثيرة للشفقة. تحوَّلت إلى حيوانٍ محبوس في قفص، أظافري المتَّسخة طالت كالمخالب، وشعري كثيفٌ طويل، لم أقصَّه منذ سنوات، يغطِّي وجهًا شاحبًا، والمخدّر القويّ يجري طوال الوقت في شرايني.

أحمر

مدينة yes، **المصحَّة**

xxbx

حاولت الحديث إلى بعض المريضات. ذات مرَّة اقتربت منِّي بقامتها النحيلة، ووجهها الهزيل بعظامه البارزة، وعينيْها السوداويْن الغائرتيْن. همست في أذني:

«سيزيلون مهبلك».

«ماذا؟»

«سيقتلعونه من الجذور».

هذا ما حدث قبل خروجي. لا أدري إنْ كانت نبوءة أمْ أنَّها تعرَّضت لعمليَّة الاقتلاع ذاتها. بقيت أتذكَّر ملامح وجهها، نبرة صوتها المبحوح، عباراتها الحادَّة، كلَّما نظرت إلى نفسي في

المرآة. استراتيجيَّة اقتلاع الجذور! وددت أن تكون قصَّتي مجرَّد كابوس، أو حكاية خياليَّة تدور في رأسي، لا صلة لها بالواقع. روت لي كيف اغتصبتْها عصابةٌ حين كانت في الخامسة عشرة، وصفت لي دمار حياتها، كيف أُجهضت وانتهى بها الأمر مجنونة بحسب ادِّعاء عائلتها. أرادوا التخلُّص منها فألقوا بها في المصحَّة. اختاروا لها الموت البطيء والتعفُّن بعيدًا عنهم. ما قالته لم يفاجئني. كنت متبلِّدة الإحساس، أنظر إليها بعيونٍ فارغة. فقدت القدرة على المواساة، أو قول أيّ شيء. صرت ألوذ بالصمت، وأكتفي بتحريك رأسي. انغلقتُ، وكبتُّ مشاعري. كنت أريد أن أحضنها، أن أبكي معها، أن أصرخ في وجه العالم، لكنَّ الكلمات اختنقت في حلقي، وماتت في داخلي الصرخة. الدموع تقطع الطريق أمام أيِّ محاولة لقول شيء ما. سمعت أنَّها تخرج ليلًا تبحث عن ترابٍ تأكله، تنبش الأرض باحثةً عن قوتها، ترفض الوجبات التي تُقدَّم لها، وعندما يمنعون عنها التراب، تمكث أيَّامًا تعاني الجوع، ينهار جسدها، فيرضخ الأطبَّاء لرغبتها المجنونة. لا يعتبرونها مريضةً بحاجة إلى علاج، بل مجرمة، جريمتها التجوُّل في أروقة المستشفى ملاحقةً لذَّتها، تشمّ رائحة التراب من بعيد، طعمه في فمها متعة، ملمسه يحفِّز فيها الشهوات. تغنِّي بصوتٍ حزين أغنياتٍ كئيبة، لا خيار للنزلاء سوى سماعها، صوتها فيه بُحَّة لذيذة، الكلمات باذخة بالشجن والحنين إلى أرضٍ بعيدة. يرتفع الصوت عاليًا، يبرق، يحتدّ، يرقّ قبل أن يخبو، ويتحوَّل إلى حشرجاتٍ مخنوقة بالدموع. ما إن تبدأ بالغناء، حتى يتحلَّق الجميع حولها، يُخيِّم صمتٌ عميق، ولا

يتردَّد في المكان، غير نشيجها. المريضات يرقدن على الأرض، يرخين رؤوسهنَّ، ويرهفن السمع، يراقبنها بعيونٍ مشتعلة، الأغنيات تحلِّق بخيالهنَّ خارج الأسوار.

بعد يومَيْن، سمعت صوت بكائها. اقتربت من الحائط الذي يفصل بين غرفتَيْنا، ووضعت أذني عليه. كان صوتها يرتفع بحدَّة، ثم يعود إلى الخفوت. حاولت أن أفهم ما تقول. انتظرت كثيرًا لعلَّها تصمت، وأعود إلى سريري، غير أنَّها لم تتوقَّف. أغلقت أذنيّ بأصابعي، لكنَّ صوتها اخترق سمعي، وظلَّ ينفذ إلى داخلي. صراخٌ حادٌّ مزَّقني، لم أسمعه من قبل، كان ينطلق متجاوزًا الجدران والأبواب المغلقة. أردت أن أذهب إليها، لكنِّي شعرت بألمٍ في ركبتيّ. تجمَّدت مكاني. بقيت طوال الليل أتمزَّق، عاجزةً عن فعل أيِّ شيء، أرى الحزن ينبش مخالبه في قلبها. حاولت أن أبعد رأسي عن حائط الغرفة، وأغيب في دوَّامة نوم، إلَّا أنَّ الجوّ كان مخنوقًا، وصدى الصراخ تردَّد في أعماقي. توقَّف صدري عن الحركة، بدا أنَّه تحوَّل إلى حجرٍ ثقيل. بعد محاولاتٍ كثيرة، زحفت صوب السرير. خبَّأت رأسي تحت الوسادة. بكيت أنا الأخرى بحرارة. لولا البكاء لكان عذابي أكبر. أبكي لأرتاح، لأتحرَّر من أثقالي. نمت لأصحو على صراخٍ وبكاءٍ مريريْن. كان اليوم الأخير الذي أراها فيه. انتحرتْ بجرعاتٍ زائدة من العقاقير. توقَّفت حياتها، تجمَّدت مثل حجرٍ محروق. تخيَّلتُ أنَّني سأكون التالية في لعبة الموت، فتملَّكني الخوف. تخلَّص الحرَّاس من جثَّتها وسط الظلام. رأيتهم يرمون بها في شاحنة. هل يمكن للإنسان أن يرمي جثَّة إنسانٍ آخر

مثل ثيابه أو حقيبة سفره؟ ماذا يعني الميِّت لهؤلاء؟ من سيفتقد وجودها؟ لم أستطع النوم ثلاث ليالٍ متواصلة. شعرت أنِّي أتحوَّل إلى مخلوقٍ أكثر بؤسًا. كانت الأفكار تركض في رأسي مثل نمورٍ جائعة. تشهَّيْت الموت. لا أدري كم مات منِّي! فكَّرت، لن أعيش حتى اليوم التالي. سيخونني جسدي. سيخونني قلبي متوقِّفًا عن الركض.

ليالي المصحَّة طويلة، تكاد لا تنتهي، وصمتها لا يخترقه غير عواء الذئاب. صمت، صمت، عالم صامت. تكرار، تكرار، كلّ شيء يتكرَّر. لا شيء جديد. ليتني ذئبةٌ حرَّة، أبحث عن طريدتي في الغابات. ليتني حشرةُ ليل أطلق صوتي دون خوف من العقاب، من الاضطهاد، من القتل. كنت أعرف قدراتي جيِّدًا، سأنهار، ويتخلَّى عنِّي جسدي، كما دأب أن يفعل. من لديه العزيمة لتحمُّل كلّ ما عانيته: الحرب، اليتم، الهجرة، الاغتصاب، الوحدة، الجنون؟ بقيت متيقِّظة، أعصابي تكاد تنفر من تحت جلدي. في أوقاتٍ كهذه، قد يستدفئ الإنسان بذكرى حبيبٍ أو قريب. لم أجد غير طفولة باهتة، لست متأكِّدةً من حدوثها، ربَّما اختلقتها لتؤنس وحدتي. اعتدت أنْ أُغلق ورائي الباب، لأبكي، وأشدّ شعري، وأمزِّق ثيابي مثل أرملةٍ عند قبر زوجها، أندب حظِّي العاثر. لا أريد أن يراني أو يسمعني أحد. اكتفيت من نظرات الشفقة. كرهت عبارات المواساة. حقدت على نفسي. لا أريد غير خلوتي بالألوان. أعضّ ساعدي. أقضم أصابعي، لأتأكَّد أنِّي موجودة، هل أنا أنا أم أنا شبحي؟ بعد أن ينزف الدم، وألحسه بلساني كقطَّة جائعة، أسأل عن معنى

وجودي. كنت أسقط كلّ يوم في العذاب. يؤلمني بدني، تنشب النار في صدري وأكتافي. أتفقَّد أعضائي: رأسي مكانه، ساقي ملتصقة بالساق الأخرى، تسندان جسدًا متهالكًا.

عشت أيَّامًا طويلة أتحمَّل الإنهاك، والتعب، والجوع، والاتِّساخ، والبرد القارص. بين جدرانٍ باهتة، رماديَّة اللون، شديدة القذارة، وهواء الغرفة المشبع بالرطوبة، كان عليّ مقاومة جيش الحشرات التي تزورني في الليل. تعرَّضت لهجمات صراصيرَ كبيرة الحجم، كانت تنتقل في الغرفة، تعتلي الملابس والسرير، تهاجمني وأنا نائمة لتمصّ دمي، وتصيبني بحكَّةٍ شديدة. جرذان بأنياب حادَّة، وعيون مخيفة، تحمل ملايين البراغيث التي تسبِّب الأمراض، كانت تهجم علينا في الغرف، تصبح أكثر عدائيَّة حين نواجهها بالمصائد. تقفز بجنون، تخبط بالجدران، تتسلَّق أسرَّتنا مثيرةً الرعب في قلوبنا. تهاجمنا مثل الوحوش فتسبِّب لنا جروحًا، خصوصًا في الوجه. كان الجرذ عندما يشعر بالخطر، وأنَّه محشور في الزاوية، يتحوَّل إلى قطٍّ شرس، يهاجم دون تردُّد بأنيابه الحادَّة. كانت الجرذان تتنافس لإزعاجنا وقضم طعامنا، ونحن نتقوقع تحت أغطيتنا، والدماء تتجمَّد في عروقنا. اعتدت سماع الصراخ ينطلق ليلًا من الغرف المجاورة، بسبب الوحوش التي تهاجم دون رحمة. إضافةً إلى الجرذان والبراغيث، كان هناك القارص أسود اللون، عاشق الغزو الليليّ والطقس الحارّ، يهاجم في قطعانٍ منظَّمة، نسمع أصواته فوقنا مثل الطائرات، إذ يقوم بغاراته.

لم أكن أعيش في مصحَّة، بل في زنزانة بائسة، أُعاني فيها

ضغوطًا نفسيَّة رهيبة، ومزاجًا متقلِّبًا طوال الوقت. تارةً أكون مبتهجة، تصيبني نوبة ضحكٍ مسعور، وتارةً أكون في غاية الاكتئاب. نوبات الهلع كانت الشيء الوحيد الذي لم يفارقني، تغرقني في دوَّامةٍ من المرض، فأمتنع عن تناول الطعام ويلازمني الصمت. أتشوَّش، يختلط عليَّ الواقع بالوهم. تخيُّلاتٌ وكوابيسُ تغزوني. القذارة، الظلمة، الوحدة، الألم، جدران عالمي. أبكي، وأبكي، وأبكي، أصرخ وما من مجيب. أتمتم، أهذي بما لا أفهمه، أدركتُ أنَّ خوفي لا حدَّ له، وأنَّ واقعي بائسٌ إلى درجةٍ يصعب وصفها. كان العالم الخارجيّ يُطاردني، اختبأت منه، ظلَّ يلاحقني مثل كلبٍ مسعور. أراه ينبش مخالبه في لحمي، ينبش عميقًا، يُبقر بطني ويُخرج أحشائي، وأنا متجمِّدة، أنظر إليه بعيون ملؤها الرعب. كلب صيد مدرّب هو العالم وأنا فريسته. أتشنَّج، وأتلوَّى على الأرض، ألفظ أنفاسي. أصوات الفئران إذ تركض في الممرَّات، كانت كافيةً لأصرخ طوال الليل. خرخشة الماء على السطوح تفقدني توازني، أشعر أنَّها أدوات تعذيب. ذات ليلة بينما كنت نائمة في سريري، فتحت عينيّ، فرأيت جثَّة امرأةٍ تعتصرني، وجهها شاحب ورائحتها كريهة.

برتقاليّ

مدينة yes، المصحَّة

xxbx

بعد ستَّة أشهر مرَّت ببطء، بذلتُ خلالها ما بوسعي للخروج من الحالة، بدأت صحَّتي تتحسَّن بشكلٍ ملحوظ، وتراجعت أعراض المرض. كنت أجلس القرفصاء طوال ساعات أمام حائط الغرفة، كما فعلت في طفولتي حين اندمجت باللوحة، لكنِّي هذه المرَّة لم أَرَ سوى البياض. مارست التأمُّل تحت أشعَّة الشمس التي كانت تنساب من النافذة، حيث تبرز أشجار السنديان بقاماتها الطويلة، وأوراقها الكثيفة. خفت الكوابيس والهواجس، شعرت أنَّ رغباتي الخفيَّة عادت إليّ. أعضائي بدت أقلّ إنهاكًا، ورأسي أكثر خفَّة. تخيَّلتني أركض في الخارج بين الأشجار، أجلس على رمل الشاطئ وأتأمَّل البحر.

ذات مرَّة، عندما حرَّكتُ الخزانة من مكانها، رأيت بحرًا مرسومًا على الحائط، داخل نوافذ يتوالد بعضها من بعض؛ كانت ألوانه طازجة، رسمته امرأة مجهولة نزلت في الغرفة، تخيَّلت أنَّ لها وجه أمِّي. وجدت نفسي أتأمَّل اللوحة وقتًا طويلًا، شعرت بالأمان، بقيت على هذا الحال حتى طرقت الممرِّضة باب غرفتي. تخيَّلت أطفالًا يتساقطون من المراكب، يستنجدون، يمدُّون أياديهم للأمَّهات الغريقات في الجهة المقابلة. جذبني اللون الأزرق، لون حياتي الفائضة، والحنين لطفولةٍ معذَّبة. وجدتني أبحث عن الألوان، تنقَّلت بين الغرف، لم أتكلَّم مع أحد، كنت أريد شيئًا واحدًا، تلبَّستني فكرة الرسم، استيقظتْ قوى كامنة في أعماقي، وقاتلتُ مخاوفَ لم أعرفها، شعرت أنَّني قد أموت بعيدًا عن الألوان. تسكنني أشباحٌ قديمة تنهض من سباتها، وتمزُّقاتٌ عميقة في هويَّتي، تجرحني، أُقاتلها وحدي. اللون سرّ توازني، من دونه أنا مختلَّة، يعطبني العالم. هامشيَّة. الأطبَّاء يرونني مريضةً، بلا جذور، بلا مكان، مهاجرة هربت من بلادها، تروي حكاياتٍ كاذبة، تخترع معاناةً، لتنحت هويَّة متخيَّلة؛ شعورها بالنقص يدفعها لارتكاب أيِّ جريمة لتلفت الأنظار. قصَّة حياتها محض خيال، جنونها تظاهر، وما تعانيه أزمة بحث عن هويَّة، جذورها ضاربة عميقًا في الخداع.

اعتادت ممرِّضة في سنِّ الأربعين أنْ تبادلني الحديث أثناء فترة استراحتها، كان وجهها ناعمًا وصوتها حنونًا، طويلة القامة ترتدي ملابسها الزرقاء التقليديَّة. عندما تمسك يدي أشعر بالدفء الذي افتقدته. ذات مرَّة سألتني: لماذا تتحدَّثين عن السلاحف

طوال الوقت؟ «لأنَّني سلحفاة» قلت لها دون تفكير. فقد وجدتني أتصرَّف مثل سلحفاة، عندما أنام على ظهري أشعر بكسلٍ رهيب، وبعد أنْ أمشي خطواتٍ قليلة أتوقَّف لأستريح، أشعر بحملٍ ثقيل على ظهري، وأحتاج لبعض الوقت قبل أن أستوعب ما يحدث.

«لا تيأسي، هل تحبِّين الرسم؟»

«أحبّه أكثر من أيّ شيء».

«ستخرجين من هنا، فقط تحلِّي بالعزيمة».

«أنا متعبة».

«هذا المكان يوفِّر العزلة عن العالم الخارجيّ، العلاج، الهدوء، جلسات التأمُّل، إنَّها فرصةٌ للراحة، يجب أن تساعدي نفسك، ليساعدك الآخرون».

حدَّثتها عن اللوحة التي اكتشفتها في غرفتي، أجلس كلّ صباح أتأمَّلها، فأهدتني بعض الطباشير، فَتَنَتْنِي ألوانها، خفَّتها، غبارها على أصابعي. كانت الألوان تهمس أنَّ حياةً جديدة بانتظاري. هذا ما تفعله فتنة الألوان. لغة تعشقها الروح التوَّاقة. لغة مغوية، محلِّقة. تجاسرتُ على المغامرة، رسمتُ وأنا غائبة عن واقعي، فحوَّلت الجدران إلى لوحات. كنت أحسّ أنَّني غارقة في بحرٍ عميق، أغوص بعيدًا في ذاتي.

الرسم يأخذني إلى عالمٍ بعيد، أبعد ممَّا قد يتصوَّره إنسان. الرسم سيِّد المعجزات. هل من الممكن أن أتداوى بالرسم؟ كيف أحوِّل اللون إلى ترياق؟ هذه اللغة التي لا يعرف أسرارها سواي،

تبوح باختلاجاتي، تشبهني، ترسمني حدَّ الفضيحة. عندما أرسم أكون أكثر انسجامًا مع نفسي، وأقلّ احترابًا مع العالم. أردت طريقةً للتحرُّر، للهرب خارج الجدران. فكرة الحرِّيَّة استولت على تفكيري، فبدأت أحرِّض خيالي. انطلقت أرسم بشغفٍ طوال ليالٍ كاملة، وعندما تنفد الطباشير والألوان، أحرِّك أصابعي على جدران الغرفة حتى تنزف. الإحساس بالسقوط قلَّ حضوره، وقلبي عاد ينبض، أشعر به يرتجف، كأصابعي الخجلة أوَّل الرسم من عذريَّة البياض. تدريجيًّا، بدأتُ الإحساس بأشياءَ جديدة كانت غائبةً عنِّي مثل الهدوء والفضول والشغف والرغبة في الحياة.

مع الأيَّام، بدأت الألوان تجذب المرضى، استطاعوا أن يُخرجوا ما بداخلهم، صارت أياديهم أكثر ثباتًا، يبدو أنَّ الرسم حفَّز شيئًا ما في أعماقهم، وأكسبهم القوَّة، شعرت بطاقةٍ كبيرة لأوَّل مرَّة منذ انهياري، ابتسمت لنفسي في انتصار بعد شهور من العذاب. كنَّا عشر نساء نجلس في حلقة لنرسم ما نشاء. الأكتاف متراصَّة، والعرق يسيل من أجسادنا، لا نكترث بالرائحة، نلتصق ببعضنا أكثر، كأنَّنا نحمي أنفسنا من الخارج، من الغريب، من الرجال. نرسم وجوهًا، أشجارًا، بيوتًا، غيومًا مرتحلة، ولا يُسمع غير أنفاسنا، يُخيِّم الصمت على أجسادنا المتموِّجة، وفرح لذيذ يسري في أصابعنا. أنقذتنا الألوان من الرعب والشعور بالعدم. استعدنا طاقتنا، ونشاطنا، وصرنا أكثر تماسكًا. كانت اللوحات الرديئة التي نرسمها عزاءنا الوحيد في عالم يستلب روحنا، وينتهك أجسادنا، ومتنفَّسًا لهواجسنا وأفكارنا التي

تحرَّرت من جحورها، وتجاوزت أسوار المصحَّة العالية، كاسرة حالة اليأس. حاولنا الهرب إلى عالمٍ رحيم، حيث الألوان والناس طبيعيُّون، ليس فيه اغتصابٌ وحروب ولجوء وقمع وعنصريَّة وجوع وأمراض. فكَّرت: في الخارج، كم من النساء انمسخن إلى سلاحف؟

على أغصان الأشجار كانت الطيور تتقافز، ترفرف بأجنحتها، تزقزق، تهبط أحيانًا لتلتقط قُوتَها وتطير. أحبّ أن أطعم العصافير بيدي، وأنْ أرقبها عن بُعْد، كائنات رقيقة، تغرِّد في الصباح، وتحلِّق بأجنحتها ملوَّنة الريش. لماذا قدر البريئات والطيِّبات أنْ يتعرَّضن للأذى؟ آه.. لشدِّ ما هم متوحِّشون! متوحِّشون وقساة. أولئك الذين يؤذون العصافير. لا أريد أن أكون أيًّا من الطيور، أريد أن أتعلَّم الشراسة، القوَّة، كيف أدافع عن نفسي دون مخالب. أقول لنفسي، وقتها كنت صغيرةً وضعيفة، فأتوقَّف عن جَلْد ذاتي. سمعت قصص النساء من حولي. توحَّش الرجال، تحوَّلوا إلى مخلوقاتٍ قاسية، تصرخ وتضرب وتغتصب، تنهش بأنيابها أجسادَ فتياتٍ بريئات. نداء الجنس عندها أقوى من أيِّ نداءٍ آخر. كلّ امرأةٍ تحمل على كاهلها مئات السنين، أطنانًا من التعب، ألَّا تنطفئ شعلة الحياة داخلها!

صارت المصحَّة عالمي. ما من أحدٍ ينتظرني في الخارج. قبل أن أدخل المصحَّة، انقطعتُ عن العالم، لا أدري ما حدث فيه من كوارث، كنت فقط منعزلةً في غرفتي. انتظرت، انتظرت طويلًا خلاصي. امتصَّني العالم وتركني وردةً ذابلة، لو أملك أنْ

أُعيد العمر لبدأته من الزلّة الأولى، وكنت للأخطاء وفيَّة، أنا الذي أخطأني الحظّ. لم أُخطئ، لكنِّي دفعت ثمن أخطاء الآخرين. صرت أكثر جهلًا بي. جفَّ اليقين، وتوحَّش الشكّ. ماذا أفعل؟ أنفض عن جسدي طعناته، أربِّي الأمل مثل قطّ سياميّ. وحيدةً أحارب الجنون، لا حبيب يضمّني بين ذراعيه، ولا أهل يقاسمونني ضجر الشتاء، وحدها الألوان منذ عرفتها منفاي. بعد مزيدٍ من الرسم وعشرات الطباشير، منحتني الألوان ولادةً جديدة، وشرَّعت لي أبوابًا لم أعرفها. كنت ألاحق اللون وأعرِّيه، أحضنه، أشمُّه، أجد فيه الدفء. بوسعي فعل شيء غير انتظار الموت. فكَّرت أنْ أدفع المرضى للرسم، خطر لي أنَّ حالتي الصحِّيَّة تحسَّنت بعد أنْ عاد شغفي بالألوان، فقد تخلَّصت من التوتُّر وتخيُّلاتي المرضيَّة. خلال جلسات الرسم، كنَّا نتفتَّح مثل الزهور، نتبادل أحاديثَ مطوَّلة، ثم بهدوء ودون أن نشعر أخذت ضحكاتنا تتعالى، تحوَّلت جلساتنا إلى حفلات رقصٍ وغناء. كان هدفنا أن نظلّ أحياءً وسط الموت الذي يُحيط بنا. وجوهنا متعبة، أيادينا ترتجف، لكنَّنا رقصنا بجنون. استعدنا فرحنا، صارت تُسعدنا أبسط الأشياء، أشرقت ابتساماتنا على الرَّغم من الغضب، نتخاصم ونتصالح، نبكي ونصرخ، الألوان قاربت بيننا، وانتابت كلًّا منَّا رعشةُ الحياة.

كيف حدث ذلك؟ كنَّا متشائمات صامتات، فجأةً تحرَّك شيءٌ ما في داخلنا، ثائرًا على اليأس. نقاوم، نضحك، نغضب، فكَّرنا أنَّنا لن نموت بملابس الحِداد، دون إحداث ضجَّة. لا أعرف ما السرّ وراء اليقظة التي شعرنا بها. هل رغبةٌ كامنة تفجَّرت بعد

كبتٍ طويل أمْ سذاجة طفوليَّة؟

أنشأنا أخويَّة التأمُّل والرسم. بعد عدَّة جلسات، شعرنا بالاسترخاء وأنَّ لدينا ما نحتاج إليه. مكانٌ هادئ بعيد عن العالم، بقعةٌ مليئة بالأشجار والهواء النظيف. عالمٌ يجمعنا واهتماماتٌ مشتركة. أضفنا إلى جلسات الرسم تمارين صباحيَّة. في كلِّ يوم، يُغادرنا وجعٌ أو حزن، فنشعر أنَّنا صرنا أفضل. الراحة، التوازن، الخروج من الحدود الضيِّقة، التجربة، الاستماع للعواطف. أحيانًا ونحن مُحاطات بالصمت، نتمدَّد تحت أشعَّة الشمس، لنسمح للدفء أن ينتشر في أجسادنا. كان للدفء نكهةٌ مختلفة، لذيذة. نفكِّر بالعالم الخارجيّ، نحن اللواتي يعذِّبنا التفكير، نحلم به أقلّ وحشيَّة، نخلقه من وهم وخيال. كنت أنظر إليهنَّ غير مصدِّقة. الحزن يبتعد، ليحلّ مكانه الضحك. يا لحيواتنا المسروقة! يا لأعمارنا الضائعة! لو كان العالم غير العالم، لو أنَّ الإنساني فينا انتصر على المتوحِّش. نرقص في الساحات عوضًا عن التشقُّق، التأسِّي، التمزُّق، اليتم اليوميّ. هل سأبني علاقةً مختلفة مع العالم؟ لماذا لا أحبّه؟ ربَّما يجدر بي أن أعيد فهمه، أن أبتكر طرقًا بديلةً للطرق القديمة. كم تناهى إلى سمْعي صوتٌ ساخر، يقول بثقة أنَّه لا أمل لي بالنجاة. على الرَّغم من الأصوات، صرت أكثر هدوءًا. هواءٌ نقيٌّ خفيف، يعبرني بين الفينة والأخرى. الممرِّضة الطيِّبة وفَّرت لي مزيدًا من الألوان. غمرتني بسعادةٍ حقيقيَّة. طاقات هائلة تدفَّقت في شراييني، وحيويَّة نبضت تحت جلدي. أحيانًا، تتحوَّل الطاقات إلى عذاب إنْ لم تجد منفذًا للخروج. كنت أعشقني ملطَّخةً بلون

العشب، حينها أغيب في عالمٍ لذّيّ وشاعريّ. اعتدت أن أتمدَّد عاريةً على ظهري فوق ملاءةٍ بيضاء. أتحسَّس الوحمة الكبيرة على خاصرتي، لونها مائلٌ إلى الأزرق، ومدبوغةٌ في الجلد منذ ولادتي. أتعرَّف إلى جسدي عضوًا عضوًا. أكتشفه من جديد بتضاريسه وانحناءاته. بعد لحظات التأمُّل، ألوِّن جلدي بواسطة الفرشاة. أبدأ من صدري، أرسم وردتيْن جاعلةً الحلمتيْن في الوسط، ثم أرسم على بطني نباتاتٍ متسلِّقة، تمتدّ مثل العرائش بأوراقٍ خضراءَ حريريَّة وبراعمَ متفتِّحة. على فخذيَّ، أرسم مجموعات من الورود الحمراء والصفراء والأزرق الداكن ببتلاتٍ كبيرة. أحوِّل جسدي إلى لوحات سرياليَّة تنبض بالحياة. أشعر أنِّي مختلفة، فرديَّتي عالمٌ في غاية الإدهاش. تعجبني الغرابة وقدرة جسدي المصبوغ بالألوان على الإيحاء. كلّ مرَّةٍ أرسم فيها على جسدي أشعر بطاقةٍ مشرقة مجهولة الأصل. تنتظم نبضات قلبي، ويصفو ذهني. الخطوط تبدو قنواتٍ ملتوية من زبد البحر تنحدر نحو أودية الركبتيْن. أشعرني جديدةً ومختلفة، كأنِّي كنت مظلمةً مثل كهف، والألوان أضاءتني. تختفي البقع الداكنة ليحلَّ مكانها مدرَّجاتٌ من الضوء. سعادة لا توصف حين أراها. تمتلئ روحي بعد أن كانت فراغًا. أداعب الزهور بأناملي وأتفقَّدها. أملِّس الوردتيْن المرسومتيْن على صدري، وأتحسَّس النباتات المتسلِّقة في ركبتّي. أحببت زهوري البسيطة، وأدهشني تركيبها وكيفيَّة نموِّها. زهرةٌ بعالمٍ خاصّ لا يُصغي إلَّا لإيقاعاته. أشمّ رائحة طلاء الألوان، فتُثيرني وتغويني. تتوتَّر أوتاري الخفيَّة. سرعان ما أُدرك أنَّ الوقت مناسبٌ للسفر بمخيِّلتي. أشرد

لساعات. أرى فضاءاتٍ جديدة تتوالد حولي. أحافظ على الرسومات أسبوعًا كاملًا، أتحرَّك بجسدٍ يفيض بالورود والنباتات اليانعة. يا إلٰهي كم كنت أحبّ جسدي حين يشعّ بالألوان. أنجو من الخوف. تهجرني الكوابيس والأفكار السيِّئة. أتحرَّر منها ما دامت الرسومات على جسدي. اكتشفت ذلك بعد تجربتي الأولى. يقودني ذهني المنهك إلى الاختلاء بالألوان. الإنهاك الذي يشلّ تفكيري ويحرمني مباهج الحياة. أريد أن أنسى. وأنا عارية دون طِلاء الألوان أشعر أنَّني سيِّئة. أجتهد لأُخفي هويَّة جسدي، أشوِّه ملامحه، أستبدله بآخر، لأنَّه مصدرُ ألمٍ لا يُطاق.

أصفر

مدينة yes، المصحّة

XXCX

بعد مرور عاميْن من دخولي المصحَّة، جاءني طبيبٌ وثلاثة ممرِّضين، اصطحبوني إلى غرفةٍ لم أدخلها من قبل. كانت دافئة ونظيفة، جدرانها مغطَّاة ببلاطٍ أبيض، وفيها سرير جراحة مزوَّد بأحزمةٍ جلديَّة. سلَّط الطبيب ضوءًا في عينيّ وفحصني قبل أنْ يبدأ تحقيقًا، سألني فيه عن اسمي وعمري ووضعي الاجتماعيّ وعائلتي، أجبته بصوتٍ محايد بمساعدة ذاكرة مشوَّشة، أنَّني لا أعرف أبي، حملت بي أمِّي بعد أنْ اغتصبها أثناء الحرب الأهليَّة، واغتصبني زوج أمِّي لسنوات قبل أن ينتحر. لم يُظهر أيّ ردَّة فعل. حدَّق في أوراق ملفِّي الطبِّيّ.

«حالتكِ مستقرَّة، بإمكانك الخروج، عليك أن تتَّبعي نظامًا صحِّيًّا وغذائيًّا صارمًا. سيتطلَّب الأمر تغيير عاداتك، والالتزام بالنوم الجيِّد، والابتعاد عن الغضب». أضاف بعد أن تبادل النظرات مع الممرِّضين: «لا علاقات جنسيَّة».

غمرتني رغبة بالضحك.

«لا أظنُّني قادرة».

«مع ذلك علينا أن نكون متأكِّدين».

«لم أفهم!»

أغلق الملفّ. نهض وتوقَّف إلى جانبي قائلًا بصوتٍ بارد، ولكنْ بتلذُّذ واضح.

«سنُجري لك عمليَّة تعقيم، ستفقدين قدرتك على الإنجاب»

كنت قد سمعت أنَّ الحكومة تُجري عمليَّات تعقيم بشريَّة على 20% من السكَّان ضمن ما يُسمَّى برنامج «تحسين النسل»، لإنقاذ العرق النقيّ من الاندثار، والحفاظ على تفوُّقه، فتُجبر أصحاب الإعاقات الجسديَّة والعقليَّة والمثليِّين والمعدمين و«النساء السيِّئات» على التعقيم.

لم أُصدِّق أنَّ حكومات العالم تغوَّلت في الاستبداد، لدرجة تصنيف النساء بهذا الشكل العنصريّ. سمعت أيضًا أنَّ عصاباتٍ مقرَّبةً من الحزب الحاكم، خطفت أطفالًا حديثي الولادة من أُسَرٍ فقيرة، ثم وزَّعتهم على عائلاتٍ غنيَّة مؤيِّدة للنظام، بحجَّة حمايتهم من الانحراف.

«ما الذي تعنيه؟ هل تراني فأرةَ تجاربَ مذعورة؟»

«تريد الحكومة أطفالًا سليمين من أمَّهاتٍ قادراتٍ على العناية بهم».

«وأنا سيِّئة، شرِّيرة؟»

«لديك مشاكل وحياتك مضطربة، إضافةً إلى ميول إجراميَّة. الأفضل أن تعيشي بلا أبناء. إنَّه إجراءٌ لصالح المجتمع، ومن واجبنا إخبارك، هكذا ستسير الأمور».

«تريدون تحويلي إلى مسخ».

«كلّنا مسوخ. سنجري العمليَّة غدًا».

تقدَّم نحوي، وبعد أنْ ربَّت على كتفي، أخبرني أنَّ بإمكاني الرحيل، وأضاف:

«قرَّرنا مصيرك. وجدناه الخيار الأفضل».

كان يساومني مستغلًّا مرضي وتوقي للحرِّيَّة.

«بعد العمليَّة، نُهْدِيك إلى العالم امرأةً جديدة» مشيرًا نحو الباب.

ماذا يعني أن تكوني امرأةً جديدة؟ لم أشعر بالنعاس طوال الليل، وبقيت أُفكِّر في مصيري الذي قرَّره آخرون. صباحًا، وجدت نفسي واقفةً أمام سريرٍ قصير مغطًّى بمفرشٍ أبيض، في غرفة مثل غيرها من الغرف، لا يميِّزها غير لوحة مؤطَّرة لجبلٍ جليديٍّ. كانت أشعَّة الشمس تصلني من النافذة، فتملأ المكان بالضوء الساطع لتتدفَّق الحياة في شراييني. حاولت أن أبتعد عن

التفكير، لكنِّي فشلت. كنتُ أعرف منذ البداية، أنَّهم يعملون على مسخي إلى شيءٍ آخر. تمدَّدت فوق السرير واستسلمت للطبيب. رأيت يديْه مكسوَّتيْن بالقفَّازات، وكانت إلى جانبه عربةٌ فيها مباضع وأكياس مملوءة بمحاليلَ وأنابيبَ ورزمةِ إبرٍ وضمَّاداتٍ وغيرها من الأدوات. أرخيت ذراعيَّ إلى جانبي، وأغمضت عينيَّ بهدوء. كان جسدي خفيفًا، كأنِّي فقدت الإحساس به. فكَّرت في أمورٍ كثيرة. خطر ببالي مثلًا أنَّني عشت يتيمة، كان لديَّ عائلة، لكنَّني شعرت باليتم دائمًا. أحببت أمِّي، لكنَّها بقيت بعيدة. يصعب عليَّ شرح الأمر، والتفسيرات لن تزيد المسألة إلَّا تعقيدًا. خطرت لي أشياءُ صغيرةٌ وتافهة، لا ترابط بينها، ذكرياتٌ متشظِّية، غير أنَّها غائرة في الماضي. سمعت هدير البحر، ودويّ رصاص، وصراخَ بشرٍ مذعورين.

أحدث الطبيب جرحًا صغيرًا في بطني، ثم أدخل أنبوبًا مزوَّدًا بمنظار. رأيت تفاصيل العمليَّة على شاشةٍ وُضعت أمامي. «ها نحن نستأصل...». كانوا يريدونني أن أرى قوَّتهم بعينيَّ. تمامًا مثلما فعل زوج أمِّي، ومثلما فعلت الحكومة. راقبت الطبيب يعبث في أعماقي بأصابعه المشبعة بالدماء. شعرت برغبةٍ شديدة في التقيُّؤ، وسرعان ما غبت عن الوعي. بعد أن انتهت العمليَّة، لم أنطق بكلمة. ذهبت إلى غرفتي محنيَّة الظهر، منكَّسة الرأس، دميةً أُلقي بها. أغلقت خلفي الباب. كنت تحت تأثير التخدير. استلقيت على السرير، فخذاي ملتصقان، يداي مضمومتان في حُجري، رأسي مختبئ تحت المخدَّة. تصبَّبت عرقًا باردًا. آه، وخزات الألم تزداد سوءًا. شعرت بكلِّ وخزة ألم، كلّ انقباض

عضليّ. الوجع في الداخل كان أعمق وأعمق. تكوَّرت على نفسي دجاجةً نافقة. طريقٌ طويلٌ من الألم، وأنا وحيدةٌ في زنزانةٍ اسمها العالم، حولها زنازين لا حصر لها. الوحدة مؤلمة. آه، ألم جسدي فظيع، لم أشعر بمثله في حياتي. فضَّلت الموت على تلك المعاناة التي لا تنتهي. وخزات كشظايا زجاج تُغرس في لحمي. يا للرعب! جسدي سيتفجَّر في شظايا من شدَّة الألم. وخزاتٌ تهاجم دون رحمة، لا تتوقَّف، تضرب بقوَّة، كلّ مرَّة تزداد شراسة. منهكة. الشقّ الذي أحدثه الطبيب نكأ جروحي دفعةً واحدة. تذكيرٌ دائمٌ أنَّ جسدي ليس لي. تذكيرٌ دائمٌ بشريعة الغاب. أردت أنْ أغسله بالملح والدموع، كانت لديَّ آلاف الأسباب للبكاء. أعاد الرحم تكوين نفسه، بطرد البويضات خارج أرضه. صار رحمي كهفًا مظلمًا، أرضًا بورًا، شجرةً غير مثمرة. ثمَّة يأس استفحل ورمًا خبيثًا في بطني. فقدت الوعي. لا أذكر إنْ وقعت مغميَّة عليَّ، أو أنِّي نمت من شدَّة التعب ولم أنهض، لا أدري، لكنِّي بينما كنت غارقة في غيبوبتي، رأيت يدًا ذكوريَّة تمتدّ لتحيط برقبتي، تضغط عليها، اختنقت، حاولت انتزاعها. روحي طلعت من حلقي، شهقت، تمزَّق صدري. لا هواء. لا أستحقُّ ما حدث لي. كان مشهد أبي مرتديًا زيّه العسكريّ بينما يمزِّق أنوثتي، ويدنِّس جسدي، يتكرَّر دائمًا في رأسي. كلَّما باغتني النعاس، رأيت وجه مغتصبي، ينهش لحم طفلته، لحمي، وينبش مخالبه في براءتي، فيجرفني طوفان دموع كثيف، ويأكلني الفزع. أشمّ رائحته دائمًا على جلدي، على الرَّغم من الدعك اليومي بالماء والصابون، أمضي وقتًا طويلًا في تنظيف أعضائي،

أغسلها، أُعطّرها، أستحمُّ بإفراط.

أموت حزنًا وأبعث عنادًا، أغيب عن الوعي وأعود أكثر يقظة، العرق يسيل، والدم يغلي، لا شيء يحدث غير تدمير متواصل للذات. تمتزج الدموع بالعرق، الهذيانات بالحقائق، العجز بالإرادة. يغيم العالم حولي، خفقات قلبي في ازدياد، وأنغمس في عذاب لا حدَّ له. طال بي الأمر وأنا نائمة. كم مضى من الوقت؟ حين استيقظت، حدَّقت في السقف. أردت أنْ أنسى، أنْ أفقد ذاكرتي، أنْ أتمزَّق، أنْ أختفي. اشتهيت الموت. أنْ أنام دون استيقاظ. بحثت عن سكِّين، شظيَّة زجاج، أدوية. وقفت. جلست. درت حول السرير. ضربت رأسي بالحائط. نظرت إلى نفسي في المرآة، لعنتها: حقيرة، جبانة، أنا لا شيء. اللاشيء ولاداتي المتكرِّرة. كلَّما قلت انبعثت، انحرقت أجنحتي. اللاشيء ولعي بعالم أبيض خالٍ من الأخطاء والذنوب، مريضة بالفوبيا، لا حقَّ لي فيه بفعل أو قول. أصمت، أنكمش، أذوب، أؤدِّي دوري في المسرحيَّة. أُريد أن أقطع حياتي الماضية بسكِّين حادَّة. أريد أن ينتهي كلّ شيء. حين سقطت دائخة، أعدت التحديق في السقف. دفعني بياضه إلى التفكير في البحر. اشتهيته! الحبّ ما لست أدري، أشعر به، لا أتمكَّن من التعبير عنه، وإنْ حاولت أخفقت. سعادتي أنْ أموت فيه غريقة، تبتلعني أمواجه، وأندفن في أعماقه للأبد. الدم يسيل من رأسي، أتحسَّسه. الأرض تحتي صلبة. رقدت على الأرض وحدي طوال الصباح. كان جسدي عاجزًا عن التحرُّك، مشلولًا، مليئًا بالكدمات الزرقاء. وجدت صعوبةً في التنفُّس. شعرت بالعجز الكامل،

خمَّنت أنَّني فقدت قدرتي على تحريك أطرافي. تخيَّلتني ملفوفة بكفنٍ ناصع البياض، يُلقى بي في قبرٍ شديد البرودة. كنت بعيدة عن رأسي، عن خلاياي العصبيَّة، عن قلبي، عن عضوي التناسلي، عن ذاتي.

تابعت صورًا كشريط سينمائيٍّ، ذكرياتٍ قديمة تعود إلى أيَّام طفولتي، فوَّهات بنادق وقنابل يدويَّة، سيَّارات مفخَّخة تنفجر في الأسواق، أحذية محترقة مبعثرة بين ركام البيوت، جنرالات يغتصبون نساءً في أسرَّة أزواجهنَّ، جنود منتشون بالخمر والبارود، يبقرون بطون النساء ويذبحون الأجنَّة، طرْقٌ عنيف على الأبواب، قبورٌ جماعيَّةٌ، جثثٌ، أراملُ ينتحبن بإفراط، حلقي جافّ، طنينٌ مخيف في جمجمتي، الصرخات ترتفع وتنخفض، شعورٌ شديدٌ بالاختناق. أرض باردة، والحديد يصطكّ حولي. باب حديديٌّ يُفتح، أصواتٌ بشريَّةٌ تقترب، عيونٌ زجاجيَّةٌ تنظر إليَّ، يرفعونني عن الأرض، الهواء يشتدّ ثقله، أرى وجه الممرِّضة، عيناي مفتوحتان تتابعان يدها، بشرتها شديدة البياض، وجهها محفور بالندوب، تفحص نبضي، تتأكَّد أنَّني لم أمت...

لم تنتهِ

تروي عالم 9 حكايةَ ثلاث نساء في عالم متخيّل، لتشتبك مع إشكاليّات الجسد الأنثويّ والحرب واللجوء، من خلال حكايتَيْن متوازيتَيْن متقاطعتَيْن: حكايةِ فتاةٍ خلّاقة واجهتْ قسوةَ العالم بالألوان، وحكايةِ والدتها التي هربتْ بها من "الجنوب" أثناء الحرب الأهليّة بحثًا عن حياةٍ أفضل في "الشمال"، لتعاني - بعد وصولها - العنصريّةَ ضدّ اللّاجئين.

محمّد جبعيتي: كاتب فلسطينيّ، من مواليد 1993. صدرتْ له روايات: «المهزلة»، و «رجل واحد لأكثر من موت»، و«غاسل صحون يقرأ شوبنهاور» (الأخيرة عن دار الآداب).

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978-9953-89-719-6
9 789953 897196

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135 –1861633 +961